اقرأ

دكتور عبد العزيز الدسوقي

شوقي ضيف

رائد النقد والدراسة الأدبية



دار المعارف

اقرأ

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

ص
٨٠

٤٠٥٩٠٢/٠١

اقرأ

[٥٤٢]

شوقي ضيف

رائد النقد والدراسة الأدبية

دكتور عبد العزيز الدسوقى

شوقى ضيف

رائد النقد والدراسة الأدبية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

هذا الكتـــاب...

* هذه مجموعة من الفصول نشرتها على شكل مقالات فى مجلة الثقافة فى الفترة من أكتوبر ١٩٧٩ إلى أكتوبر ١٩٨٠.

وكلها تدور حول رائد من أهم رواد النقد والدراسة الأدبية فى الحياة العربية المعاصرة، هو الأستاذ الدكتور شوقى ضيف.

وقد حرصت على أن أبرز فيها، إنجازه الفكرى، وإبداعه النقدى، من خلال نظرة شاملة متذوقة لمؤلفاته المتعددة، فى مجال النقد والدراسات الأدبية والإسلامية، ورؤية جمالية تاريخية للدور الثقافى الذى قام به على امتداد نصف قرن من الزمن: أستاذًا جامعيًا، وناقدًا أدبيًا، ودارسًا منهجيًا، ومفكرًا خصب العقل، مرهف الذوق، عميق التناول.

وقد استقبل القراء وتلاميذ الدكتور شوقى ضيف، هذه

الفصول عندما كانت تنشر فى مجلة الثقافة - نضر الله أيامها - بالرضا والاهتمام، وألح علىّ بعض هؤلاء الأعزاء فى إصدار هذه الفصول فى كتاب يسهل الرجوع إليه، بدل أن تظل مبعثرة بين أعداد الثقافة.

واستجبت بكل الحب والإعزاز لهذه الرغبة النبيلة. وأتمنى أن يصادف الكتاب من الاهتمام والقبول والاحتفال، ما صادفته الفصول عندما كانت تنشر فى المجلة.

وعلى الله قصد السبيل..

القاهرة ١٩٨٧

دكتور عبد العزيز الدسوقى

مقدمة

شوقى ضيف رائد فى الدراسة الأدبية*

أعتقد أن هذه أكبر مناسبة فى تاريخ الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، فقد حصل هذا العام الباحث المفكر الإنسان، على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب فى الشهر الماضى.

وإن شئت الدقة فقل هو أكبر حدث فى حياته كلها... فالرجل وقف حياته منذ صباه المبكر حتى الآن على التعلّم والتعليم، والبحث والدرس، فى تَجرد الزّهاد، وصبر المجاهدين الصادقين، بعيدًا عن التظاهر والاستعراض، وصخب الحياة الاجتماعية ومواضعاتها، وتقاليدها الجوفاء.

ولقد هزتنى كلمات جاءت فى التقرير الذى كتب عنه متضمنا مبررات ترشيحه للجائزة.. وتقول هذه الكلمات:

---

* العدد ٧٣ أكتوبر ١٩٧٩ من مجلة الثقافة.

«إنه يعد نمطًا فريدًا فى جيله، وإمامًا فى تخصصه، له قدرته المتميزة على استيعاب الأصول والمصادر البعيدة للتراث العربى...

وبمثابرته على تأصيل مناهج الدراسة الأدبية والنقدية واللغوية على أسس موضوعية قومية، نفذ إلى الكثير من الحقائق العلمية، والإضافات المبتكرة الخصبة، وصوَّب كثيرًا من القضايا الخاطئة والمغلوطة، وكشف عن وجه الثقافة العربية ضبابًا التفَّ به منذ حركة الإحياء».

هزتنى هذه الكلمات، لأنها تصور بالفعل الجهود الموصولة المثمرة المباركة للدكتور شوقى ضيف، ولأنها تضع أمام الدارس المتخصص فى إيجاز دقيق عميق المجالات العلمية التى ارتادها الدكتور شوقى ضيف، وكان لها بحق رائدًا وإمامًا.

* فالرجل رائد فى النقد والدراسة الأدبية، والدراسات اللغوية.

* وهو رائد فى تأصيل مناهج جديدة للبحث العلمى.

* وهو رائد فى الدراسات القرآنية والإسلامية.

وريادته لتلك المجالات كلفته الكثير، فقد وهب حياته

كلها للبحث العلمي... وتكبد من العناء والمشقة ما تكبد، وصبر على الخوض فى هذه التيارات المتلاطمة من المعارف الإنسانية، وتحمل عبء التحصيل والمثابرة على الاستزادة من العلوم والفنون. وبطبيعة علمية مواتية، وحافظة نادرة،كان يحيط بالكثير من المعارف، ويقف على معظم التيارات الأدبية والفكرية التى تتصل بدراسته. وبذكاء لماح، وأفق واسع، وخصوبة فى الاستيعاب، وقدرة على النفوذ إلى جوهر الأشياء، كان يهضم ما يقرأ، ويتمثل ما يقف عليه من أفكار واتجاهات. وبأسلوب علمى دقيق رشيق، يجمع بين القصد والعذوبة والوضوح، كتب مؤلفاته وتحقيقاته التى تقترب من الخمسين.

وكتب الدكتور شوقى ضيف يعرفها تلاميذه ومريدوه، من الذين تلقوا عليه العلم فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، خلال أربعة عقود: (الأربعينات، والخمسينات، والستينات، والسبعينات). وهم أفواج بعد أفواج ينتشرون الآن على امتداد الأرض العربية. ويحتلون أكبر المناصب العلمية والحكومية، إلى جانب تلاميذه الذين أشرف على رسائلهم العلمية فى الجامعات الأخرى، أو من الذين تتلمذوا على كتبه من خارج الجامعات...

وكتب الدكتور شوقى ضيف تحولت إلى مصادر أصيلة ومراجع متميزة للدارسين والباحثين، سددت خطاهم، ورفدت بحوثهم بأدق النظرات وأعمق الأفكار، وصارت مجال أخْذٍ وردٍّ بين الباحثين والدارسين، وهذا هو المجد الباقى، والخلود الدائم بالنسبة للعالم الباحث الدارس.

وإننى بهذه المناسبة أطرح سؤالاً على الإخوة الذين يثرثرون منذ عامين فى الصحف والمجلات وأجهزة التوصيل والثقافة، ناعين جدب الساحة الثقافية، متباكين على ما زعموه، من ذبولٍ النقد والدراسة الأدبية، هل قرأ هؤلاء الإخوة شيئًا من كُتب الدكتور شوقى ضيف فى مختلف المجالات الأدبية والفكرية وتحقيق التراث، والتى توالى صدورها منذ مطلع الأربعينات حتى العام الماضى؟ هل قدموا تعريفًا بكتاب من هذه الكتب فى زواياهم الأدبية وصفحاتهم ومجلاتهم التى يشرفون عليها؟!

وما أُبرئ نفسى من هذا التقصير، فعلى معرفتى الكاملة بمؤلفات الدكتور شوقى ضيف وقراءتى معظم هذه المؤلفات، فإننى - أنا الآخر - لم أكتب عنه، إلا مرتين اثنتين عندما انتُخِبَ عضوًا فى مجمع اللغة العربية. مرة فى الثقافة

الأسبوعية العدد (١١٦) الصادر فى ١٥ يناير ١٩٧٦. ومرة ثانية فى الثقافة الشهرية العدد ٢٩ الصادر فى فبراير ١٩٧٦. وأعترف أنها خطرات عابرة لا ترقى إلى التعريف الجاد العميق برائد عظيم فى الدراسة الأدبية، مثل الدكتور شوقى ضيف.

وأرجو أن تتاح لى الظروف على امتداد هذا العام الجديد من عمر الثقافة لدراسة أعمال الدكتور شوقى ضيف دراسة تفصيلية، وإبراز جهوده العلمية ومناقشة النتائج التى توصل إليها. وهى نتائج كثيرة ورائعة.

وأرجو أن يكون هذا الموضوع الذى أكتبه بمناسبة فوزه بالجائزة بمثابة مدخل لهذه الدراسات التفصيلية التى أزمع القيام بها إن شاء الله.

وإذا كان لابد من بداية صحيحة لدراسة أعمال الدكتور شوقى ضيف، فلابد من الوقوف - أولا - عند كتابين من أهم كتبه وهما: «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» و «الفن ومذاهبه فى النثر العربى».

وقد صدرت الطبعة الأولى للكتاب الأول فى عام ١٩٤٣، وصدرت الطبعة الأولى للكتاب الثانى سنة ١٩٤٦.

وأنا أعاود قراءة الكتاب الأول فى طبعته العاشرة. والكتاب الثانى فى طبعته الثامنة. وهما طبعتان جديدتان صدرتا فى العام الماضى.

معنى ذلك أن كتب الدكتور شوقى ضيف لاتزال حية، وشديدة الحضور فى الساحة الثقافية، ولاتزال - كما كانت منذ أكثر من ثلث قرن - تؤثر فى العقول والقلوب والأذواق، وتستأثر باهتمام الناس من مختلف الأعمار والأفكار والاتجاهات. ترى ما سر جاذبية تلك الكتب والدراسات الجادة العميقة، التى تدعو إلى الإقبال عليها وطلبها، وإعادة طبعها كل تلك المرات؟

وللإجابة على هذا السؤال البسيط، يجب أن أمضى فيما أنا بسبيله الآن من الدراسة المفضلة لمؤلفات الدكتور شوقى ضيف.

وأعود إلى توضيح سر اهتمامى بكتابيه «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» و «الفن ومذاهبه فى النثر العربى».

فالكتاب الأول الذى صدر فى مطلع العقد الرابع، كان أول كتاب يصدر للمؤلف. وكانت الساحة الثقافية مزدحمة بكتابات الجيل الأول من الرواد. طه حسين، وهيكل،

ومصطفى عبد الرازق، وأمين الخولى، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، والعبادى والعقاد والمازنى وشكرى وسلامة موسى والرافعى وزيدان ومهدى علام وأحمد ضيف، وغيرهم وغيرهم من رواد الجيل الأول، الذين اهتموا فى الدرجة الأولى ببعث التراث العربى فى أزهى عصوره. وحَرْثِ الأرض، وبَذْرِ بذور التجديد فى التُّرْبة العربية.

وانصرفت معظم جهود المحافظين من هذا الجيل الأول إلى إحياء التراث،ومحاولة جعله شيئًا مألوفًا فى حياتنا الحديثة.

أما المجددون من أبناء هذا الجيل الأول، فقد استأثرت بجهودهم تيارات الفكر الأوربى، والاتجاهات الأدبية، وطرائق البحث ومناهجه التى كانت متقدمة فى العالم الغربى.. فحاولوا نقل هذه المذاهب والاتجاهات إلى العربية، وتطبيقها على أدبنا القديم والحديث، ولهذا جاءت معظم دراساتهم تطبيقًا للنظريات الأوربية، وإشاعة لتلك النظريات وهذه المذاهب كما هى وبأسمائها...

ولست أغض من شأن هذا العمل الحضارى، فلاشك أن

هؤلاء الرواد الأوائل، هم أصحاب الفضل فى تفجير حركة البعث الأدبى، وإشعال حركة التجديد، التى بدأت من منتصف القرن الماضى حتى أواخر السنوات العشر من القرن العشرين، وهاتان الحركتان تلاطمتا وتحولتا - عبر العقود الثلاثة من هذا القرن - إلى تيارات ثم اتجاهات فى النقد والدراسة الأدبية. ولكن هذا الجيل الأول من الرواد لم يستطع أن ينشئ مدارس فى النقد والدراسة الأدبية، مدارس بالمعنى الحقيقى للمدارس الأدبية. وقصارى جهوده، توقفت عند تلك الاتجاهات التى تبلورت طوال العقد الثالث من القرن العشرين، أى على مشارف الحرب العالمية الثانية.

ومن هنا انفسح المجال أمام الجيل الثانى ليقوم بهذا العمل. ولكن قلة قليلة من هذا الجيل هى التى أدركت هذا الأمر، واتضحت أمامها تلك الخارطة لحياتنا الأدبية. أما بقية هذا الجيل فقد وقع معظمه فى براثن الجيل الأول، وراح يحاكيه ويكرر ما فعل، وراح بعضه يحاكى الأقدمين مع قليل من التجديد. أما القلة القليلة التى تحملت مسئوليتها وأدركت دورها، فقد بدأت ترسى دعائم مدارس للنقد والدراسة الأدبية فى ساحتنا الثقافية، وكان الدكتور شوقى

ضيف من أوائل هذه المجموعة الرائدة، إن لم يكن إمامها ورائدها.

كان الطريق صعبًا وشاقًّا أمام هذه المجموعة الرائدة من الجيل الثانى، على الرغم من أنها استفادت بإنجازات جيل الرواد الأول فى النقد والدراسات الأدبية. حيث وجدت أمامها كتبا فى النقد والدراسة الأدبية تطبق أحدث المناهج العلمية وتطبق فى دراسة الشعر مناهج التحليل النفسى والاجتماعى، وتتذوق الشعر على أسس من الفهم الواعى البصير، وكان عليها إذا أرادت أن تتميز عن هذا الجيل الأول - وأن تنمو إلى جوار هذه الأشجار السامقة العاتية التى قتلت بجانبها كل الأشجار الصغيرة والأعشاب - أن تقدم تصورًا جديدًا فى النقد والدراسة الأدبية، تصورًا ناضجًا متماسكًا، له أسسه الموضوعية، وقواعده العلمية، وقيمه الجمالية وطرائقه التعبيرية. تصورًا محددًا يختلف عما قبله من نظرات، ولا يندرج فيما بعده من اجتهادات. ومن هنا نشأت الصعوبة أمام هذه القلة من الجيل الثانى الذى جاء بعد جيل الرواد.

ولكن الدكتور شوقى ضيف تقدم فى شجاعة ورسوخ -

فى مطلع العقد الرابع من هذا القرن - يقود هذه المدرسة الجديدة ويرسى دعائمها، ويضع أسس هذا التصور الجديد للنقد والدراسة الأدبية.

وكان كتابه الرائد «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» يحمل ملامح هذه المدرسة الجديدة. التى يمكن أن نطلق عليها «مدرسة التأصيل النظرى». ولقد رفضت هذه المدرسة أن تندمج فى هذا التراث القديم، أو أن تتلاشى وتذوب فى التيارات الأوربية المعاصرة، وكان عليها أن تضع لها رموزها وقيمها وتسمياتها وتحددها بدقة وتطبقها على تراثنا الفنى، بعد أن تنتزعها من نصوصه، بحيث تجىء متفقة مع روحه وجوهره وطبيعته الجمالية، وتجىء أيضًا متفقة مع سياق العصر واتجاهه فى التفكير والتعبير.

وكان الدكتور شوقى ضيف إمام هذه المدرسة، مهيأً بحكم تكوينه الفكرى والروحى، وثقافته الخصبة ودراساته المتنوعة، فى معاهد الأزهر، وتجهيزية دار العلوم، وكلية الآداب، للقيام بهذا الدور.

فلأول مرة يدرس الشعر والأدب على أنه مذاهب فنية محددة، ولأول مرة يضع لهذه المذاهب أسماء محددة مستقاة

من تاريخنا الأدبى وتراثنا، ومتمشية مع طبيعة الأدب العربى وظروف نشأته ، ولأول مرة يطبق هذا التصور على الأدب العربى شعره ونثره، ويختبر تلك المقاييس والتسميات على نماذج من الأدب العربى.

وكان الدكتور شوقى ضيف على وعى تام بما يفعل، وعلى علم دقيق بأنه يقيم أسس مدرسة للتأصيل النظرى، تضع للشعر والنثر مذاهب فنية تفسره وتحدد ملامحه الفنية وقيمه الجمالية.

وفى مقدمة الطبعة الأولى من كتابه الأول «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» يوضح لنا ملامح هذا التصور الجديد بقوله: «حاولت فى هذا الكتاب أن أضع للشعر العربى، مذاهب فنية تفسر تطوره فى عصوره وأقاليمه المختلفة، وقد صادفتنى مشكلتان أساسيتان، وهما: كيف أرتب هذا الركام الهائل من الشعر والشعراء الذى يمتد من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث؟ ثم أى المصطلحات أتخذها للدلالة على مذاهب الشعراء ومناهجهم الفنية. ورأيت أن أنحاز عن هذا الخليط المضطرب من الألفاظ الغربية التى نقلها بعض نقادنا المحدثين من مثل (كلاسيك) و (رمانتيك) ونحوهما،

فإن من الصعب أن نحمل أدبنا على مذاهب الأدب الغربي، وهو لا يمت إليه بوشائج تاريخية ولا فنية»[1].

هو إذن يريد أن يجدد الدراسة الأدبية، ويضع للشعر العربي مذاهب فنية تفسره. ولكنه في الوقت نفسه يرفض أن يتلاشى في المذاهب الغربية الجديدة... وهذا هو معنى «الأصالة والمعاصرة»، ولكنه يمتلك أيضًا حرية العقل والذوق والضمير فراح يفتش في تراثنا العربي عن دعائم تعينه على تحديد المذاهب التي يرغب في التوصل إليها، يرفض ما يشاء بحرية، ويقبل ما يشاء بحرية.

وهو يحدثنا عن هذه الرحلة من المعاناة بقوله «ونظرت في النقد العربي فإذا النقاد يقسمون الشعراء قسمين كبيرين: قسمًا سموه أصحاب الطبع. وقسمًا سموه أصحاب الصنعة، أما الأولون فهم الذين يسيرون وفق عمود الشعر الموروث، فلا ينمقون، ولا يتأنقون، ولا يتكلفون ولا يغربون. وأما الأخيرون فهم الذين كانوا ينحرفون عن هذا العمود إلى التنميق والتأنق، أو إلى الإغراب

(١) الدكتور شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ٧ (الطبعة العاشرة دار المعارف ١٩٧٨).

والتكلف، ورأيت أن هذا التقسيم لا يقوم على آساس صحيح»[1].

هو يرفض تفسير الأقدمين هذا، ويرى أن تقسيم الطبع والصنعة لا يحل الإشكال، ولا يصمد للمناقشة العلمية. فكل شعر لاشك مستند إلى طبع موات وموهبة محققة، مهما تأنق صاحبه وأجهد نفسه فى صناعته ونظمه. وكل شعر لابد له من أسس علمية وقواعد، وتقاليد فنية ورسوم جمالية يتوارثها الشعراء جيلاً بعد جيل، مهما زعم شعراء الطبع من أنهم يستندون إلى فطرهم الملهمة، ومواهبهم الخصبة. الشعر محتاج إلى الموهبة والفطرة، حاجته إلى الصقل والدراسة والصنعة والتقاليد، وهداه هذا الرفض إلى بداية الخيط الأول لاسم المذهب الجديد والتسمية التى يطلقها عليه.

لقد اتخذ كلمة (الصنعة) اسماً للمذهب الفنى الأول الذى ظهر فى الشعر العربى، واتخذ (زهيراً) رمزاً لهذا المذهب، ووصف فنه فى شعره، ووضح ما يرتبط به فى صناعته من قواعد وتقاليد.

ويحدثنا أنه ربط بهذه الصورة من الفن والصناعة،

---

(١) المصدر السابق والصفحة.

«الشعر الغنائى الخالص الذى كان يصحب بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية، من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى، فإن أصحابه لا يخرجون به عادة - إلى زخرف وتنسيق»[1].

ومسح العصر العباسى كله، حيث انتقلت صناعة الشعر العربى من البادية إلى المدينة، وامتزجت بهذه التقاليد عناصر جديدة من الحضارة والجنس والثقافة. فظهر مذهب ثان إلى جانب القديم سماه «مذهب التصنيع». وهذا المذهب يعتمد على الحَلْى والترصيع والبديع... يعتمد على الزخرفة والتنميق. وهذا هو معنى «التصنيع» وازدهر هذا المذهب فى القرنين الثانى والثالث. وفى القرن الرابع ظهر مذهب جديد ثالث أطلق عليه الدكتور شوقى ضيف «مذهب التصنع»، لأن شعراء هذا المذهب الجديد تطرفوا فى الصنعة حتى وصلوا بها إلى لون من التعمل والتعقيد. فالشعر العربى إذن مر بمذاهب ثلاثة فى رأى الدكتور شوقى ضيف:

المذهب الأول: «مذهب الصنعة» وضم شعراء العصر الجاهلى والعصر الإسلامى حتى العصر العباسى. ومثله فى

---

(١) المصدر السابق ص ٨ - ٩

بدايته زهير، ثم امتد إلى العصر العباسى، وظل قائمًا، ومثله بشار، وأبو نواس، ثم البحترى، وابن الرومى.

المذهب الثانى: «مذهب التَّصْنيع» ومثله فى القرنين الثانى والثالث الهجريين مسلم بن الوليد، ثم أبو تمام، وابن المعتز.

المذهب الثالث: «مذهب التصنع» وقد ظهر فى القرن الرابع. ويحدثنا الدكتور شوقى ضيف عن هذا المذهب الثالث بأنه كان «يقوم على إعادة الصور المطروقة والمعانى الموروثة، بأساليب من اللف والدوران وإتيان المعنى من بعيد، ثم يحاول الشاعر بعد ذلك أن يضيف تعقيدًا إلى أساليب الزخرف والتنسيق السابقة، أو يضيف تعابير وتراكيب شاذة من نحو غريب، أو تشيع، أو تصوف، أو تفلسف، وما لبث أبو العلاء أن أوفى بهذا المذهب إلى غايته من التعقيد الشديد فى لغته وأوزانه، وما كان يتصنع له من لوازم مختلفة»[1].

هذه هى المذاهب الثلاثة التى اهتدى إليها الدكتور شوقى ضيف بعد عناء شديد، ودراسة جادة متذوقة فى

(١) المصدر السابق ص ٩

شعرنا العربى كله. وأنا أقف أمام هذه التسميات فى احترام شديد ورهبة أشد، لأننى أدرك تمامًا مدى الجهد الذى بذله الدكتور شوقى فى التأصيل والتنظير حتى استقامت له هذه التسميات، ومدى العناء والإرهاق الذى بذله فى تطبيق هذه التسميات على الشعر العربى، والنثر أيضًا.

لم تعد إذن هذه الكلمات الثلاث مجرد ألفاظ تحمل دلالاتها القديمة، يمكن أن نتناولها فى استهتار ونزق قائلين - مثلا - إن الفروق بينها غير واضحة. فلقد تحولت إلى مصطلحات محددة تدل على مذاهب فنية لها أسسها الموضوعية وحدودها الواضحة.

بهذا الجهد العلمى المضنى فى التأصيل والتنظير، رَادَ الدكتور شوقى ضيف، هذه المدرسة الجديدة فى النقد والدراسة الأدبية فى مطلع العقد الرابع من هذا القرن.

ومن خلال هذه المدرسة الجديدة ومصطلحاتها التى فسر بها الشعر العربى، فسر أيضًا النثر العربى فى كتابه «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» الذى صدر عام ١٩٤٦ وأصبح له نسق فكرى محدد صارم، يقيس عليه ويدرس من خلاله ويبدى رأيًا فى كل ما يقرأ وما يتصور، ويتفق مع هذا أو

يختلف بناء على الالتزام بهذا النسق الفكرى الجديد، والتصور الذى طرحه من خلال هذين الكتابين. وهذا هو المعنى الدقيق للمدرسة الأدبية. وأعتقد أن طرح هذا التصور الجديد منذ هذا الوقت المبكر هو الذى يجعلنا نعقد لواء الريادة الآن للدكتور شوقى ضيف، فهو رائد من هذه الناحية.

قد نختلف معه بعد ذلك فى بعض التفصيلات، أو حتى فى كل تطبيقات هذا التصور على جوانب من أدبنا وتراثنا. ولكننا سنظل نقر له بالريادة ونقف مبهورين خاشعين أمام هذا الأساس النظرى الذى كبده كل هذا العناء، وكتب فى سبيل تأصيله كل تلك الصفحات وكل تلك المؤلفات. لأنه شق بهذا التصور طريقًا جديدًا.

وهذا التصور الجديد ظل يلازم الدكتور شوقى ضيف، وهو يكتب حتى فى الأدب المعاصر. ولعل هذاالتصور الجديد هو الذى منحه هذا التفوق والتفرد والتميز. حتى وهو يكتب عن المدارس النحوية، أو وهو يقتحم ميدان الدراسات القرآنية.

وعندما حاول الدكتور شوقى ضيف أن يتخفف من أسر هذه المدرسة التى رادها، وهو يكتب موسوعته الرائعة

(تاريخ الأدب العربى) فى أجزائه الأربعة، لم يستطع - فقد تسللت إلى تلك الموسوعة نظرات كثيرة من هذه المذاهب الفنية التى أصَّلها على امتداد تاريخه الأدبى كله.

منهج الدكتور شوقى ضيف فى تأريخه للأدب العربى لفت نظرى واسترعى انتباهى، وتصورت قبل أن أقرأ الكتاب أن الرجل عاد إلى تلك الفكرة القديمة فكرة - إخضاع - تاريخ الأدب العربى للتاريخ السياسي. وظاهر الأمر يرجح هذا التصور، فقد أصدر كتابه فى أربعة مجلدات كبيرة.

المجلد الأول: خصصه للعصر الجاهلى.

المجلد الثانى: الذى أطلق عليه (العصر الإسلامى) خصصه للعصر الإسلامى، وعصر بنى أمية.

المجلد الثالث: خصصه للعصر العباسى الأولى.

المجلد الرابع: خصصه للعصر العباسى الثانى[1].

---

(١) صدر بعد ذلك من هذه الموسوعة:

* عصر الدول والإمارات - المجلد الخامس - (الجزيرة العربية والعراق وإيران).
* عصر الدول والإمارات - المجلد السادس - (مصر والشام).
* عصر الدول والإمارات - المجلد السابع - (الأندلس) - تحت الطبع.

وهذا التقسيم التقليدى القديم الذى شاع منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن، والذى ثار عليه الدارسون، لأنه لا يمثل النظرة الحقيقية للدراسة الأدبية. ولأنه يرسخ النظرة الإقليمية فى مجال الدرس الأدبى.

ولا أدرى ما الذى جعل الدكتور شوقى ضيف يسلك هذا المسلك، مع أن مدرسة التأصيل (النظرى) التى رادها وكان لها قائدًا وإمامًا منذ مطالع الأربعينات صححت منهج الدرس الأدبى، وأبعدته عن التبعية السياسية والاجتماعية، وصححت فكرة المؤثرات الاجتماعية والروحية، وأثبتت وحدة الأدب العربى ونفت عنه فكرة الإقليمية التى قال بها بعض الدارسين ؟!

وسألت الدكتور شوقى ضيف عن هذا الأمر فقال لى: لقد اصطنعت هذا التقسيم الشكلى لأؤرخ للأدب العربى كما هو فى أذهان الناس وتصوراتهم. ولكن أرجو أن تقرأ الكتاب كله لأعرف رأيك. هل هو ردة إلى منهج إخضاع التاريخ الأدبى للتأريخ السياسى ؟ أو هو امتداد لنظرتى فى الدرس الأدبى ؟!

وأغرتنى هذه الإجابة بأن أغامر بدراسة هذه الموسوعة الكبيرة، التى تزيد على ألفى صفحة من القطع الكبير، ابتداء من العدد القادم، لأناقش منهج الدكتور شوقى ضيف فى التأريخ للأدب العربى.

شوقى ضيف وتاريخ الأدب العربى*

(١)

استقر رأيى على أن أستمر فى دراسة كتب الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، والنتائج العلمية التى توصل إليها فى مجالات النقد والدراسة الأدبية، والدراسات اللغوية، والدراسات الإسلامية، وتحقيق التراث.

وأتمنى أن أقدم للقارئ - على امتداد الأرض العربية - صورة دقيقة لجهود هذا العالم الجليل التى استمرت نحو أربعين عامًا، ولايزال - أطال الله عمره - يواصل العمل والنضال العلمى.

وسأعتبر المقالة السابقة بمثابة التمهيد والمدخل لهذه الدراسة التى أنوى القيام بها - ابتداء من هذا العدد - بمشيئة الله.

---

* المقالة الثانية (العدد ٧٤ نوفمبر سنة ١٩٧٩) مجلة الثقافة.

وفى البداية سأناقش موقف الدكتور شوقى ضيف من التأريخ للأدب العربى. وما الدافع الذى جعله يفرد لهذا التأريخ أربعة مجلدات كبيرة تزيد صفحاتها على الألفين؟

سار فيها على النمط الشائع بين مؤرخى الأدب العربى منذ أواخر القرن التاسع عشر، وحتى الآن، من ربط الأدب بالتاريخ، وتقسيمه حسب عصوره.

ولا نجد غضاضة فى توجيه هذا السؤال إلى هذا الرائد الجليل، فهذا النهج من التأليف يخالف نظريته فى النقد والدراسة الأدبية التى بدأ بها حياته العلمية. والتى تتجه إلى دراسة الأدب على أنه مذاهب فنية لها خصائصها الجمالية وقيمها التعبيرية، وطرائقها الفكرية، كما فعل فى كتابيه «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» و «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» وغيرهما من كتب. والتى كانت تتجه إلى الأدب لترصد ظواهر التطور والتجديد التى مر بها كما فى كتابه «التطور والتجديد فى الشعر الأموى». أو تحدد لوناً خاصاً تميز به، وتقف عند سمات هذا اللون، وخصائصه الفنية والفكرية، كما فى كتابه «الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور». أو تعلل ظاهرة حضارية أو فنية أثرت فى الأدب

وميزته بطعم خاص، كما فى كتابه «الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية».

إذن ما الذى دفع الدكتور شوقى ضيف دفعًا إلى تأليف هذا التاريخ الموسع المفصل للأدب العربى، والذى بدأه منذ عام ١٩٦٠ عندما صدر المجلد الأول من كتابه «تاريخ الأدب العربى» عن «العصر الجاهلى»، ثم المجلد الثانى فى الخامس عشر من يولية سنة ١٩٦٣، عن «العصر الإسلامى» ويضم هذا المجلد كتابين، يتحدث أولهما عن صدر الإسلام، ويتناول ثانيهما عصر بنى أمية.

أما المجلد الثالث فيدرس «العصر العباسى الأول» وقد صدر فى عام ١٩٦٦.

والمجلد الرابع صدر فى أول مايو سنة ١٩٧٣ عن «العصر العباسى الثانى».

هل نجد تبريرًا معقولا يفسر لنا هذا الاتجاه الذى منحه الباحث الفاضل نحو خمسة عشر عامًا من حياته العلمية الموفورة؟

وهل يعنى هذا أن الدكتور شوقى ضيف غير نظرته إلى الدراسة الأدبية واقتنع بهذا المنهج المألوف الذى ساد

الدراسة الأدبية فترات طويلة من حياتنا، ووجِّهتْ إليه آلاف السهام على امتداد هذا التاريخ. حتى كاد يختفى من الساحة الثقافية؟

ويمكن أن نلتمس إجابات كثيرة عن هذه التساؤلات. ولكن يبدو أن طبيعة حياة الدكتور شوقى ضيف العلمية وتفرغه للتدريس فى الجامعة منذ بدأ حياته حتى الآن، هى التى أوحت إليه أن يؤلف كتابًا يدرس بالتفصيل الأدب العربى، ويؤرخ له فى كل عصوره. ووجد أن هذه الطريقة فى التقسيم والترتيب، هى صورة التأريخ للأدب العربى فى أذهان الناس، فلجأ إليها، واتخذها إطارًا لدراسته، ولكنه تمكن فى داخل هذا الإطار أن يقدم نظرياته فى النقد والدراسة الأدبية. التى آمن بها وراد من خلالها حقل النقد والدراسة الأدبية، وألف فيها عشرات الكتب، بل لعل هذه الجهود السابقة، هى التى أعانته على ذلك، فقد تحولت هذه الأفكار والنظريات التى بثها فى هذه الكتب إلى عصارات ثقافية سرت كالدماء فى شرايين هذا التاريخ الموسع للأدب العربى دون عناء أو مشقة.

ولكن كيف يعلل الدكتور شوقى هذا الاتجاه فى الدراسة؟

يحدثنا فى مقدمة مجلده الأول عن «العصر الجاهلى» عن ذلك بقوله: «للباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين كتب مختلفة فى تاريخ الأدب العربى، أدت كثيرًا من الفائدة والنفع منذ ظهورها، غير أن من الحق أنه ليس بين هذه الكتب ما يبسط الحديث فى أدبنا وأدبائنا على مرٍ التاريخ من الجاهلية إلى العصر الحديث بسطًا مفصلاً دقيقًا، وأغزر هذه الكتب وأحفلها مادة، كتاب «تاريخ الأدب العربى» لبروكلمان، وهو دائرة معارف جامعة لا تقتصر على الحديث عن شعرائنا وكتابنا، بل تفيض فى الكلام عن فلاسفتنا وعلمائنا من كل صنف، وعلى كل لون، مع استقصاء آثارهم المطبوعة والمخطوطة فى مشارق الأرض ومغاربها، والإشارة إلى ما كُتب عنهم قديمًا وحديثًا. وهذه العناية من وصف التراث العربى جميعه، جعلت «بروكلمان» لا يعنى عناية مفصلة ببحث العصور والظواهر الأدبية، ولا يبحث شخصيات الأدباء بحثًا تاريخيًّا نقديًّا تحليليًّا، إذ شغلته عن ذلك مواد كتابه المتنوعة الكثيرة»[1].

---

(١) د. شوقى ضيف: تاريخ الأدب العربى: العصر الجاهلى ص ٥ (الطبعة الثامنة) دار المعارف.

إذن هو لا يرضى عن خلو كتاب «بروكلمان» من دراسة الظواهر الأدبية. وخلوه أيضًا من استيعاب دراسة العصور والتريث عندها، وتناولها بالنقد التحليلى، ورأى أننا فى حاجة إلى دراسة جديدة يصفها بقوله «وإذن فأنا لا أبالغ إذا قلت: إن تاريخ أدبنا العربى يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة تبحث فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر، كما تبحث شخصياته الأدبية بحثًا مسهبًا بحيث ينكشف كل عصر انكشافًا تامًّا بجميع حدوده وبيئاته وآثاره، وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافًا كاملًا بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية»[١]

ويحدثنا أنه نهض بهذا العبء وحده على الرغم من كل العقبات ووعورة المسلك، فلايزال الكثير من الآثار الأدبية مخطوطًا لم ينشر، ولاتزال بعض البيئات يغمرها الظلام «يضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملًا سهلًا، لكثرة ما يداخلها من عناصر الحياة والفن المتشابكة، ولأنها تتألف من معان وأساليب جميلة، وهى لا تخضع

(١) المصدر السابق والصفحة.

خضوعًا مطلقًا لقواعد العلم وقوانينه، حقًّا تخضع للطريقة العلمية، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق، ونفاذ البصيرة، والإحساس المرهف»[1].

الدكتور شوقى ضيف إذن كان يعلم تمامًا أنه يقدم نظرياته فى النقد والدراسة الأدبية من خلال هذا الإطار التاريخى، أو إن شئت الدقة فقل: إنه حاول أن يخرج دراسة الظاهرة الفنية والنفسية من خلال منهج تاريخى، مع تحليل دقيق للظواهر الحضارية، وفحص علمى للتطور الجمالى للأدب، وتذوق فنى لخصائصه وقيمه وطرائق التعبير والتصوير التى يتميز بها. مع دراسة تلك التقاليد الفنية والفكرية والجمالية دراسة تاريخية فى إطار العصور المختلفة التى مرت بالأدب العربى.

والحق أنها معادلة صعبة عسيرة، ولكن النجاح فيها يعيد للدراسة التاريخية مجدها، بعد أن تحولت إلى مجرد اتجاه مدرسى عقيم؟ ويربط بين المنهج التاريخى والمنهج الجمالى والفنى فى الدراسة الأدبية، أو يمزج بينهما مزجًا.

فهل توصل الدكتور شوقى ضيف إلى ذلك؟!

---

(١) المصدر السابق.

تعال نفحص بدقة مسلكه فى دراسة العصر الجاهلى. وهو المجلد الأول من هذا التاريخ.

بدأ دراسته بتمهيد تناول فيه تعريف كلمة (الأدب) وكيف تطورت بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة. وكيف كان من معانيها الدعوة إلى الطعام، حتى أخذت معناها الذى يتبادر إلى أذهاننا اليوم، وهو التعبير «البليغ الذى يقصد به إلى التأثير فى عواطف القراء والسامعين، سواء أكان شعرًا أم نثرًا»[1]

ثم تناول فى هذا التمهيد تاريخ الأدب، ووقف عند نظرتين لهذا التاريخ نظرة تلتزم بالتأريخ «للحياة العقلية والشعورية فى الأمة تأريخاً عامًّا»[2] ونظرة ثانية تلتزم المعنى الخاص للتاريخ الأدبى فتؤرخ للشعراء والكتاب تاريخا جامعًا بالأدب ونشأته وتطوره وأهم أعلامه»[3] وتقسيماتهم للعصور، وعرض للذين أرخوا للأدب فى الشرق والغرب، وأشار إلى مناهجهم وطرائقهم.

ونحن نلاحظ أن الدكتور شوقى يبدأ منذ التمهيد فى تحديد موقفه وبيان وجهة نظره، والاهتمام بالجوانب الفنية.

(١) المصدر السابق ص ٧.

(٢، ٣) المصدر السابق ص ١١.

فيحدثنا بعد أن يعرض مناهج التأريخ للأدب بأن مؤرخ «الأدب العربى إما أن ينهج هذا النهج الواسع، وإما أن ينهج النهج الثانى الذى أشرنا إليه، فيقف بتاريخه عند الشعراء والكتاب مفصلاً الحديث فى شخصياتهم الأدبية، وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية، ومتوسعا فى بيان الاتجاهات والمذاهب الأدبية التى شاعت فى كل عصر. ومن المحقق أن المؤرخ للأدب العربى بمعناه الخاص يأخذ الفرصة كاملة كى يؤرخ لهذا الفرع الموفق من فروع الأدب بالمعنى العام، وهو الفرع الذى يراعى فيه الجمال الفنى والتأثير فى ذوق القارئ والسامع، وإثارة ما يمكن أن يثار فى نفسيهما من مشاعر وعواطف متباينة، فهو يؤرخ للأدب الخالص تاريخا مفصلاً لا يكتفى فيه بالنبذ الموجزة عن الاتجاهات والفنون الأدبية، ولا بالتراجم المجملة عن الشعراء والكتاب، على نحو ما يصنع (بروكلمان) فى تاريخه العام، بل يكتب فى ذلك الفصول الواسعة، مطبقا المناهج الحديثة فى دراسة الأدب الخاص ومن أنتجوه من الأدباء»[1].

---

(١) المصدر السابق والصفحة.

ولقد حاول أن يطبق هذه الآراء والأفكار على دراسته فى الأدب الجاهلى، ففى الفصل الأول الذى جاء بعد هذا التمهيد درس الجزيرة العربية وتاريخها القديم، فوقف عند معالمها الجغرافية وبيئاتها الطبيعية والمعنوية، وعرفنا على الساميين والعرب الجنوبيين وعرب الشمال، وتناول النقوش والآثار، وعلى هديها عرفنا نشأة الكتابة العربية.

وفى الفصل الثانى: حدَّد معنى العصر الجاهلى، وتحدث عن الإمارات العربية فى الشمال (الغساسنة والمناذرة وكندة). كما درس مكة وغيرها من مدن الحجاز، ودرس القبائل البدوية، وما كان يدور بينها من حروب مستمرة.

وفى الفصل الثالث: درس الحياة الجاهلية: بأحوالها الاجتماعية ومعيشتها ومعارفها وأديانها.

وفى الفصل الرابع: تحدث عن اللغة العربية: بعناصرها السامية المغرقة فى القدم، ولهجاتها القديمة، ونشوء الفصحى، واللهجات الجاهلية ، وسيادة اللهجة القرشية.

ثم توالت الفصول بعد ذلك حتى وصلت إلى الفصل الثانى عشر، فالخاتمة. عرفنا خلالها رواية الشعر الجاهلى وتدوينه، فعرَّفنا على الرواة المحترفين والتدوين، وقضية

الانتحال فى الشعر، وأهم مصادر الشعر الجاهلى.

ثم عرفنا خصائص الشعر الجاهلى، ونشأة الشعر الجاهلى، وتفاوته فى القبائل. ومن أهم الموضوعات التى تناولها الباحث فى هذا المجال تقريره أن الشعر الجاهلى شعر غنائى، ووقف عند موضوعاته وخصائصه المعنوية واللفظية.

ثم درس بعد ذلك بالتفصيل أربعة شعراء هم: امرؤ القيس، والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى والأعشى. وكان يقف فى دراسة كل شاعر عند قبيلته، وحياته، وديوانه، وشعره.

ثم درس بعد ذلك شعر طوائف من الشعراء: كشعر الفرسان والصعاليك واليهود والنصارى، ومحّص القول فى شعر الجن والعفاريت. وفى آخر الكتاب خصص الفصل الثانى عشر للنثر الجاهلى، درس فى خلاله صور النثر الجاهلى ، كالخطابة، والأمثال، وسجع الكهان.

هذه هى العناصر أو رءوس الموضوعات التى تناولها الدكتور شوقى ضيف فى المجلد الخاص بالعصر الجاهلى، والتى من خلالها حاول أن يقدم لنا فى إطار المنهج التاريخى المذاهب الفنية التى سادت الشعر والنثر فى العصر الجاهلى،

وملامح التطور والتجديد التى برزت على امتداد هذا العصر وطابعه الشعبى، وتأثره بالبيئات المادية والمعنوية فى شبه الجزيرة العربية، مع التحليل العلمى الجاد، والفحص الدقيق، والتأمل العميق، والتذوق الخصب، مما جعل هذا الكتاب قريبًا إلى كتب الدكتور شوقى ضيف السابقة، والتى حملت اجتهاداته وريادته للدراسة الأدبية.

ولكن العيب الأساسى فى الكتاب ينبع من طبيعة المنهج التاريخى وتقسيم العصور الأدبية تبعًا للعصور السياسية.

شوقى ضيف وتاريخ الأدب العربى*

(٢)

هل أضاف الدكتور شوقى ضيف جديدًا لمناهج الدراسة الأدبية بكتابه هذا عن «تاريخ الأدب العربى»؟ أو بمعنى أدق: هل طوَّر منهج الدراسة التاريخية فى هذا الكتاب؟ وهل حقق هدفه الذى رسمه لتلك الدراسة؟

وفى ضوء استعراضنا المتأمل الفاحص للمجلد الأول عن العصر الجاهلى، نقرر أنه أضاف أشياء جديدة لها قيمتها العلمية الهامة.

فقد ساعدته الكشوف العلمية وتقدم الدراسات التاريخية، على تحديد العصر الجاهلى تحديدًا دقيقًا. ودراسة البيئات الجغرافية التى نشأ فى ظلالها الأدب العربى.

---

* المقالة الثالثة (العدد ٧٥ ديسمبر ١٩٧٩).

والوقوف على طبيعة الظروف الاجتماعية والنفسية لشعراء العربية منذ أقدم العصور.

كما استخدم منهجًا علميًا دقيقًا وَثَّقَ من خلاله كثيرًا من الشعر الجاهلى، وبين كثيرا من مصادر هذا الشعر، بحيث أصبح لدينا قدر كاف من الشعر الجاهلى، مؤكد النسبة إلى أصحابه من شعراء العصر الجاهلى.

وهذا القدر المحقق من الشعر الجاهلى هو الذى مكَّن الدكتور شوقى ضيف من إعطاء صورة متكاملة لهذا العصر، بالإضافة إلى دراسته الجمالية لخصائص هذا الشعر من الناحيتين اللفظية والمعنوية، ودراسته المتعمقة المستأنية لأربعة من أكبر الشعراء فى العصر الجاهلى.

وبذلك قضى على الآثار الضارة التى أشاعتها فكرة الانتحال، والشك فى شعرنا الجاهلى.. وقدم للباحثين وطلاب الدراسات الأدبية تاريخًا موثقًا مبسوطًا للأدب فى العصر الجاهلى، وألقى الضوء الكامل على الأدب والأدباء فى هذا العصر، «بحيث تكشفت شخصيات الأدباء انكشافًا كاملا بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية». وهذا هو الهدف الذى توخاه من تلك الدراسة، ولذلك يمكن أن

نقول: إن الدكتور شوقى ضيف نقل الدراسة التاريخية للأدب من مرحلة «الاتجاهات التاريخية» إلى مرحلة جديدة، هى مرحلة «المدارس التاريخية» فى دراسة الأدب العربى، وهذا كسب عظيم للمنهج التاريخى، ولكن يبقى القصور فى هذا المنهج واضحًا أشد الوضوح. وهو ينعكس على دراسات من يستخدمونه، ولم يسلم كتاب الدكتور شوقى ضيف عن «العصر الجاهلى» من هذا القصور بطبيعة الحال.

فقد اقتضت طبيعة التحديد الزمنى للعصر الجاهلى أن يتحدث الدارس عن بعض الشعر وبعض الشعراء وبعض الظواهر الفنية فى هذا الإطار الزمنى المحدد، وأن يتوقف عند انتهاء العصر من الناحية التاريخية، وليس حتمًا أن تنتهى التقاليد الفنية والجمالية بانتهاء فترة سياسية أو تاريخية، فقد تمتد تلك التقاليد إلى العصر الذى يجىء بعد ذلك.

وأعتقد أن تقاليد الشعر الجاهلى وقيمه الفنية والجمالية وصوره التعبيرية، قد امتدت إلى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى، بل لقد برزت فى شعر بعض شعراء العصر العباسى أيضًا.

فالتقاليد الفنية والقيم الجمالية والخصائص التعبيرية تتكون ببطء، وعلى امتداد فترات طويلة من الزمان، ولا يمكن أن تزول بطريقة فجائية، كما يحدث فى عالم التاريخ أو الاقتصاد، فقد ينتهى عصر تاريخى بانقلاب فجائى، يجىء بعده عصر آخر، ويتولى الصدارة رجال آخرون. ولكن هذا الأمر لا يحدث فى مجال الأدب والفن والفكر والثقافة، فربط عصور الأدب بالعصور التاريخية، لا يستقيم من الناحية العلمية، ولهذا يلجأ مؤرخو الأدب العربى إلى شىء من الحيلة، فيسمون العصر الذى يجىء بعد العصر الجاهلى «عصر صدر الإسلام»، ويسمون شعراءه، بالشعراء المخضرمين.

وفى رأيى أن «مصطلح الخضرمة» ليس مصطلحًا فنيًّا ولا جماليًّا، ولكنه مصطلح تاريخى ينطبق على الشعراء الجاهليين الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام، ولا يعقل أن يحدث تغيير فنى أو جمالى بهذه السرعة، فى شعرهم، ولهذا يظل شعرهم محتفظًا بتقاليد الشعر الجاهلى وقيمه الفنية والجمالية.

وقد حاول الدكتور شوقى ضيف أن يخرج من هذا المأزق، فخصص مجلدًا واحدًا سماه «العصر الإسلامى»،

جعل بعضه لشعراء صدر الإسلام، وبعضًا آخر للشعر الأموى.

وفى رأيى أن تسمية العصر الإسلامى على جزء من التاريخ تسمية غير دقيقة، فنحن لا نزال نعيش العصر الإسلامى... فالتاريخ الإسلامى قسيم للتاريخ الوثنى، أو التاريخ المسيحى، أو التاريخ اليهودى، وليس قسيمًا للعصر الأموى أو العباسى أو الحديث، فكل هذه العصور تاريخ إسلامى. والأدب الإسلامى - على ذلك - ليس قسيمًا للأدب الأموى، ولا للأدب العباسى، ولا للأدب الحديث، لأن كل هذه الآداب يمكن أن تكون بالمعيار التاريخى أدبًا إسلاميًا، وهذا هو المأزق الذى يواجه مؤرخى الأدب العربى، الذين يصطنعون المصطلحات التاريخية فى دراسة الأدب.

وهذه مناقشة تحتاج إلى تفصيلات كثيرة، أتركها حتى أفرغ من مناقشة قضايا العصر الجاهلى التى يثيرها المنهج التاريخى، وهى قضايا كثيرة ومتشعبة، ويكفى أن نقف على أهمها، أو على ما له علاقة بطبيعة الأدب، أو ما يسمى القيم الفنية والجمالية.

ولعل أهم عيب يوجه إلى المنهج التاريخى من هذه الناحية، هو أن تقسيم العصور الأدبية حسب العصور التاريخية والسياسية، يصيب الدرس الأدبى - على الأقل - ببعض القصور فى تتبع النواحى الفنية والجمالية.

ويفرض على الباحث مهما كان خصب التناول عميق التذوق، الوقوف عند حد معين فى دراسة الشعر من الناحية الجمالية، ومن هنا تتحول الدراسة الأدبية إلى لون من التاريخ الأدبى، تقف على سطح النواحى الجمالية، ولا تنفذ إلى الأعماق. ويصبح مجال الإبداع والابتكار أمام الدارس محدودًا.

وعلى الرغم من أن الدكتور شوقى ضيف من أقدر الباحثين على التذوق الأدبى، والنفاذ إلى جوهر التجربة الشعرية، ومن أدقهم فهمًا لطبيعة الأدب العربى، وتحديد التجارب الجمالية، بالرغم من كل هذا، فإنه اضطر فى المجلد الأول من موسوعته الرائدة «تاريخ الأدب العربى» «العصر الجاهلى» إلى أن يكتفى بعدة صفحات يتحدث فيها عن خصائص الشعر الجاهلى، وعدة صفحات أخرى تتناول شعر الشعراء الأربعة الذين تناولهم فى الكتاب.

وأنا أعترف أن الصفحات التى تناول فيها الدكتور ضيف الخصائص المعنوية للشعر الجاهلى صفحات رائعة، وهى فى رأيى من أحسن صفحات الكتاب، ولكن طبيعة المنهج التاريخى فرضت عليه أن تقف هذه الصفحات الرائعة عند حد معين فى تناول الظاهرة الفنية والجمالية للشعر العربى، وحرمته من الابتكار والإبداع فى تفسير تلك الظواهر.

ويمكن أن نأخذ مثالاً يتناول فيه الباحث ظاهرة من ظواهر الشعر الجاهلى، ونوازن بينه وبين باحث آخر يتناول الظاهرة نفسها، والأبيات الدالة عليها، ولكنه لا يلتزم المنهج التاريخى فى دراسته.

وسأختار تفسير الدكتور شوقى ضيف لما سماه الحسية فى الشعر الجاهلى، حيث يرى أن هذه النزعة تسيطر على الشاعر الجاهلى، «فهو لا يعرف التغلغل فى خفايا النفس الإنسانية، ولا فى أعماق الأشياء الحسية... ولنرجع مثلاً إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس، والبدر، والبيضة، والدمية، والرمح، والسيف، والغمام، والبقرة، والظبية، والقطاة. ويشبه أسنانها بالأقحوان، وبنانها بالعنم، وثغرها

بالبلّور»[1].

ويسرد هذه النزعة الحسية لطبيعة العالم الحسى المترامى حول الشاعر، والذى يستقى منه أخيلته. ويرى الدكتور شوقى أن تمسك الشعراء بهذه الحسية، جعلهم يدققون فى أجزاء الأشياء التى يصفونها ويصفون تفصيلاتها، وكأنهم نحاتون يصنعون التماثيل.

ويرى أن هذه الحسية أفقدت هؤلاء الشعراء الاتساع فى معانيهم، «فما يقوله طرفة فى الناقة، يقوله فيها غيره. وما يقوله امرؤ القيس فى بكاء الديار يقوله جميع الشعراء»[2].

ويرى الدكتور ضيف أن ضيق معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ إلى دقائق كثيرة وصور طريفة. كما يرى أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية بصورة جامدة تبعث الملل فى نفوسنا «فقد أشاعوا فيها الحركة، وبذلك بثوا فيها كثيراً من الحيوية. وما من شك أن هذه الحركة كانت مشتقة من حياتهم التى لم تكن تعرف الثبات والاستقرار، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلأ، ومن ثم كانوا إذا

---

(١) العصر الجاهلى ص ٢٢١.

(٢) المصدر والصفحة.

وصفوا الحيوان وصفوه متحركًا، لا واقفًا جامدًا، وارجع إلى وصف طرفة لناقته فستجده يصفها وهى سائرة به فى طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه».

ولاشك أن هذه الأحكام الفنية التى أطلقها الدكتور شوقى ضيف على الشعر الجاهلى تحتاج إلى مناقشة ومعاودة نظر، ولكن يكفى أن نقرر أن الخضوع لمقتضيات المنهج التاريخى، كان له أكبر الأثر فى تلوين هذه الأحكام. ولقد انعكس ذلك على تذوق الدكتور للشعر، فعندما حاول أن يتذوق قول طرفه:

أمُون كألواح الأران نَسَأْتُها　　　على لاحب كأنه ظهر بُرْجُدِ

وقف عند المعانى الظاهرة للبيت فقال:

«وهو يشبه الطريق بكساء مخطط يجد فيه جمالا، كما يجد فيها (أى الناقة) روعة وبهاء، فيستمر فى وصفها وكأنه تدله بها حبًا، فهو لا يترك شيئًا دون أن يقيده، وكأنه يصنع لها تمثالا، يريد أن يحفره حفرًا فى أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم، ويودون لو أتيح لهم من ينصبها لهم تمثالا بديعًا»[1].

---

(١) المصدر السابق ٢٢٣.

ثم يستطرد الدكتور شوقى فيعلل بهذا الحكم كل أوصافهم ويقول: «وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم، وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام، وبقر الوحش وثورها، والأتن وحمارها، ويصورونها لنا وهى تجرى فى الصحراء، تطلب الماء، والصائد إمّا فى طريقها بكلابه، أو على الماء مستترًا منها، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولًا»[1].

وهذا تذوق مرهف، وتحليل دقيق، وتعليل ذكى، ولكنها جميعًا تقف عند سطح التجربة ودلالاتها الحسية ومعانيها القريبة.

ولولا المنهج التاريخى لنفذ الدكتور شوقى ضيف إلى أعماق التجربة، واصطنع لها رموزًا ودلالات بعيدة، كما فعل مثلا الدكتور مصطفى ناصف بهذا النموذج نفسهِ فى كتابه (دراسة الأدب العربى).

ومعذرة، فأنا مفتون بهذا الكتاب للدكتور ناصف، ولقد أثر تأثيرًا عميقًا فى عقلى وذوقى، ولهذا لا أكف عن الإشارة إليه والثناء على صاحبه.

---

(١) المصدر والصفحة.

وهو على أية حال يعطينا - فى هذه المناسبة - النموذج الفنى المتحرر من المنهج التاريخى، والذى يصل إلى أعماق التجربة الشعرية عند الشعراء الجاهليين.

لقد أعاد تشكيل الدراسة الأدبية من جديد - وهو يواجه الأفكار التى بثها الدارسون حول الشعر الجاهلى، وفسروا بها مواقف شعرائه، فهو يرى أن الشاعر الجاهلى الذى يخاطب الأطلال لا يتحدث عن عاطفة شخصية، وإنما يحاور نفسه فى معنى الحياة، ويلتمس لها العون من خطاب الطلل، فهو الماضى الذى ذهب ولن يعود «هو قطعة من الحياة تهزم كلما مضى منها جزء... الطلل المرئى رمز للماضى الذى لا يستطاع رده»[1].

ويرى الدكتور ناصف أن الشاعر الجاهلى «يروع بفكرة الحياة الذاهبة»، ويعالج هذا الشعور بالبكاء على الطلل الذى يُجسد مشكلة الموت «الطلل كان بالأمس دارًا عامرة بالبشر وصناع الحياة، لم يكن هناك ما يعكر صفو الحياة، ولكن الرحيل يطرأ دومًا على موقف الإنسان، الرحلة هى التى نغصت شعور البدوى الفنان بالحياة،

(١) الدكتور مصطفى ناصف: دراسة الأدب العربى ٢٣٦.

وجعلته يؤمن بأن هذا العنصر المستمر هو الذى يعنى الحب والحياة»[1].

ومن هنا ينشأ التوتر فى نفس الشاعر الجاهلى بين الوعى بالحاضر وبين هذا الماضى الذاهب، وكل شىء حوله يجعله يتأمل هذا الماضى ويوازن بينه - دائمًا - وبين الحاضر: النؤى، والأثافى، والأحجار التى فى طريقه وهو يرتحل، أشبه بالعظام النخرة المتخلفة عن رفات الميت، وهو من أجل هذا يصيح ويبكى، ويستوقف الصحب. ليشعر بالأمان، وليشعر أنه موجود.

إن الشاعر الجاهلى - كما يرى الدكتور مصطفى ناصف - يملك قوة الكلمة. قوة الشعر قوة الفن، وهو من أجل هذا «يريد من خلال القوى اللغوية شبه السحرية، أن يزيل التوتر الناشئ عن الشعور بالموت»[2].

فالدارس يعلل فن الشاعر الجاهلى من خلال موقفه من فكرة الموت، ويفسر فكرة بكائه على الأطلال، على ضوء هذا الشعور. لأن الطلل يتحول عنده إلى رمز للحياة التى يعبث بها الموت.

(١) المصدر السابق ص ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠.

والرمز الثانى - وهو رمز أساسى أيضًا - للحياة التى يعبث بها الموت - هى الناقة. وهنا يصل الدكتور مصطفى ناصف إلى تعليل فكرة وصف طرفة بن العبد لناقته، ولنتركه يصور لنا تلك الفكرة بأسلوبه الرائع.

«لنضرب مثلا بطرفة. لقد وصف ناقته وصفًا مسهبًا فى معلقته المشهورة، فماذا يعنى هذا الوصف؟ هنا تجد الباحثين يقولون إن الشاعر دقيق الملاحظة ككل بدوى، ومعنى ذلك أن هذا الوصف لا يحمل قيمه بمعزل عن أسبابه وظروفه المدعاة.. هذه الناقة فى الشعر الجاهلى هى الرمز الثانى للحياة... الناقة تبدو حافلة بالحياة والقوة عادة، ولكن انظر إلى تطور القصيدة، تَرَ إحساس الشاعر بفكرة المصير.. الناقة تبدو حيوانًا مقدسًا، كل ما فيها يحمل طابع القداسة، من أجل ذلك يقف عند كل عضو فيها، ولو كانت الناقة لا تحمل معنى روحيًا هامًّا لما كان فى وسعنا أن نفهم هذا الوقوف المتأنى عند كل عضو فيها... الشاعر مشغوف بالتأمل فى أجزاء الناقة، كما كان يشغف بالتأمل فى بقايا الدار أو الرسوم، هذه الأعضاء يجب أن يفكر فيها القارئ، وهو على ذكر من تلك الآثار القديمة البالية، تلك هى عظام الميت، وهذه آثار الحياة يتشبث بها الشاعر. الشاعر إذن

يعيش فى توتر»[1].

والشاعر الجاهلى من خلال وصفه للناقة التى هى رمز للحياة يريد أن يخفف إحساسه الحاد بفكرة الموت «يريد أن يعوذ حياة الإنسان من أجل أن يخف إحساسه، ووطأة وجدانه لهذا الموت الثقيل»[2].

ووصف الناقة والفرس وتشبيهها المتلاحق بصور الحياة المتفجرة النابضة تعنى - كما يقول الباحث - أن الشاعر يعبر عن رغبته بخدمة الإحساس بوفرة الحياة، فالناقة أو الفرس معوذة مزودة بقوى كثيرة، وكأن الشاعر يريد أن يراها قادرة على مواجهة كل عدو وكل نازلة. وقوة البطل فى الأساطير، ترجع إلى أن تكون من عناصر متفرقة لا تجتمع فى أحد سواه. ومن أجل ذلك قلنا إن مأساة الشعور بالموت لايمكن أن تنفصل عما نسميه ببساطة «وصف الفرس» و «وصف الناقة»[3].

على هذا النحو من الدرس المتأمل الواعى، والتذوق

---

(١) المصدر السابق ص (٢٤٣، ٢٤٤).
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٦.
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٧.

المرهف الثرى أثار الدكتور مصطفى ناصف إلى معلقة طرفة، وفسر رموزها وبين مدلولاتها، وربط بين هذه الرموز والدلالات، وبين إحساس الشاعر بالموت والفقد المستمر. وهو أساس جديد من الدرس الأدبى لا يرتبط بمنهج من تلك المناهج التى تقيد حرية الدارس فى الإبداع والابتكار.

فهذه الرؤية المتكاملة التى تكونت عند الدكتور مصطفى ناصف وفسر من خلالها بكاء الأطلال ووصف الناقة والفرس وحيوانات الصحراء والطبيعة، ما كان ليمكن أن تنمو وتزدهر على هذا النحو، لو أنه كان يدرس الأدب العربى من خلال المنهج التاريخى.

هنا أخذت التجربة دلالات بعيدة وتحولت إلى رموز موحية... حتى الأبيات المفردة تأخذ دلالات أخرى فى إطار هذه الرؤية الجديدة. ولنتأمل تناول الباحث لبيت طرفة الذى تناوله الدكتور شوقى ضيف من قبل، وكيف أخذ دلالة مختلفة وطعمًا متفردًا.

يقول الدكتور مصطفى ناصف: «ولكن لننظر معاً فى قول طرفة فى وصف ناقته:

أمُون كألواح الأران نَسَأْتُها   على لاحب كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ

يقول طرفة إن ناقته موثقة الخلق.. ولكن كيف صور طرفة هذا الجانب؟ لقد قال إنها تشبه ألواح تابوت الموتى! ثم قال بعد ذلك: إننى زجرتها من أجل أن تسير فى طريق يشبه الثوب المخطط... والحقيقة أننا إذا نظرنا مليًّا فى هذه الصورة، وجدنا الشاعر قد عبث بفكرة القوة من طرف خفى، الناقة تحمل صاحبها كما يستوعب التابوت الميت... الناقة - إذن - من هذه الوجهة، ليست هى مجرد الإنسان الذى يريد أن يبتغى لنفسه القوة والسلامة. ولكنها أيضًا حياة أخرى معدة للعبث بحياة الإنسان»[1].

الدكتور مصطفى ناصف لم يفسر - إذن - الشعر الجاهلى كما كان يفسره القدماء أو كما يفسره بعض النقاد الذين يلتزمون مناهج - كالمنهج التاريخى مثلا - تحد من قدرتهم على الغوص فى أعماق التجربة...

إنه يتخذ من الفرس عند الجاهلى رمزًا لحياة الإنسان، ويجعل الناقة رمزًا لمفهومات كثيرة، وهكذا يصنع ببقية الدلالات التى تشعها القصيدة. ويرى أننا إذا «كنا أكثر بصرًا بشئون المعنى وطرقه، واستقلال النص وكرامته، فإننا

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧، ٢٤٨.

نستطيع أن نفسر الشعر تفسيرات مختلفة من جيل إلى جيل... لكل جيل مطلبه من الشعر، ومن أجل ذلك يرى الشعر من زاوية معينة، فإذا أقبل جيل جديد، حرص على أن يعيد فهم العلاقة بين ماضى الشعر وحاضره»[1].. ولعل فى هذه الطريقة من الفهم والتذوق والتحليل ما يزيد النص الأدبى ثراء وغنى. ولا يزعج الدكتور ناصف، قول الذين يرون فى هذه الرؤية تناقضا مع الإحساس التاريخى، فهؤلاء فى رأيه يقرءون النصوص الأدبية قراءة منطقية تعتمد على إدراك الأسباب ونتائجها، ولا يدركون الماضى إلا فى مضيه، ويتناسون أن الماضى يوجد فى الحاضر أيضًا ولهذا يروعهم «مبدأ إعادة فهم النصوص القديمة والحديثة». الذين يدركون التاريخ إدراكًا وجدانيًا متعاطفًا مباشرًا... ويرون أن الإحساس بالعمل الأدبى يتغير دائمًا، وأن فهمه من أجل ذلك ينمو نموًّا مستمرًّا»[2].

هذه الرؤية الخاصة للشعر الجاهلى، وهذا التذوق الجديد لموقف طرفة من الحياة والوجود والموت والفناء، وهذا

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٤.
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٤، ٢٠٥.

التفسير للبيت الذى أشرنا إليه... كل هذه الأشياء تختلف عن الموقف والتذوق والتفسير عند الدكتور شوقى ضيف.

وأنا هنا لا أعقد موازنة بين أستاذنا الدكتور شوقى ضيف والدكتور مصطفى ناصف ، ولكن أعقد موازنة بين منهج ومنهج، لأثبت أن طبيعة المنهج التاريخى فى دراسة الأدب العربى لا تعطى الباحثين الحرية فى إعادة تشكيل التجارب الأدبية، وفهمها فهمًا يتلاءم مع إدراكنا المعاصر.

شوقى ضيف وتاريخ الأدب العربى*

(٣)

لن أتوقف طويلاً مع المجلد الثانى من موسوعة «تاريخ الأدب العربى» للدكتور شوقى ضيف، وهو الجزء الخاص «بالعصر الإسلامى». فقد بينت فى المقالة السابقة رأيى فى المنهج التاريخى فى مجال الدراسة الأدبية وأنا أتحدث عن المجلد الأول الذى خص به «العصر الجاهلى». وأوضحت عيوب هذا المنهج، وما قلته هناك ينطبق على هذا المجلد، ولا أريد أن أكرر تلك العيوب مع كل حديث عن أجزاء تلك الموسوعة الرائدة، وإن كان يتحتم علىَّ أن أكرر فى مطلع الحديث عن كل جزء، أن الدكتور شوقى ضيف قد طور هذا المنهج وأعطاه دفعة كبيرة، وأدخل عليه روافد من التذوق الجمالى، والتناول الفنى المرهف. والتوثيق العلمى الدقيق، والفحص الناقد المتأنى، وحوله إلى ما يمكن أن نسميه «المدرسة التاريخية» فى الدرس الأدبى.

---

* المقالة الرابعة (الثقافة - العدد ٧٦ - يناير ١٩٨٠).

وهذا الجزء ينقسم - كما أراد له مؤلفه - إلى قسمين، أو كتابين على حد تعبيره: الكتاب الأول فى عصر صدر الإسلام، والكتاب الثانى فى «عصر بنى أمية».

فى الكتاب الأول تحدث عن الإسلام وما جاء به من قيم روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية. وتحدث عن أثر القرآن والحديث فى اللغة والأدب والحياة.

ثم تحدث بعد ذلك عن الشعر والنثر فى عصر صدر الإسلام، ولاحظ كثرة الشعر والشعراء المخضرمين. كما وقف بصورة خاصة عند شعر الفتوح والخطابة، ودرس بالتفصيل خمسة شعراء فى هذا «الكتاب الأول» هم حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، ولبيد، والحُطيئة، والنابغة الجعدى.

وفى الكتاب الثانى تحدث عن مراكز الشعر الأموى: المدينة، ومكة، ونجد، وبوادى الحجاز، والكوفة، والبصرة، وخراسان، والشام، ومصر.

كما فحص بدقة عمليات امتزاج العرب بالأمم الأجنبية، وتناول عمليات التعريب، وما صاحبها من تحول حضارى عميق أثر فى اللغة والأدب.

ودرس بصفة خاصة شعر الهجاء وشعر السياسة وشعر الغزل. وفى هذا المجال تحدث عن شعر النقائض، وشعر (الأخطل، والفرزدق، وجرير).

وتناول شعراء الخوارج والشيعة، وشعراء الغزل الصريح والغزل العذرى، كما درس شعر الزهد وشعر اللهو والمجون وشعر الطبيعة.

كما تحدث عن الخطابة والخطباء، وازدهار الخطابة فى مجال السياسة والوعظ. ووقف عند الكتابة والكتاب.

ويرى الدكتور شوقى ضيف أن الشعر ازدهر فى عصر صدر الإسلام، ويحدثنا فى مقدمة الكتاب عن هذه الفكرة بقوله: «ودفعتنى النصوص الكثيرة فى عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التى شاعت فى أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين، إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل فى أشعار المخضرمين، وهو زعم غير صائب، بل هو زعم يسرف فى تجاوز الحق، فقد أَتَمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام، وانتظم كثيرون منهم فى صفوف المجاهدين فى سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفى الفتوح، وهم فى ذلك كله يستلهمون الإسلام ويعيشون له، ويعيشون

به، يريدون أن ينشروا نوره فى أطباق الأرض، وقد مضوا يصدرون عنه فى أشعارهم صدور الشذى عن الأزهار الأرِجَه. وبالمثل صدروا عنه فى نثرهم، فإِذا هم يستحدثون فنونا من النثر ينشئونها إنشاء... إذ أنشَئوا - على هذى القرآن الكريم - آيات بديعة من المواعظ الدينية، كما أنشئوا ضروبًا من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية»[1].

ويحدثنا عن عصر بنى أمية أنه كان «عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم، وانسياحهم فى مشارق الأرض ومغاربها، مما أذكى فى نفوسهم جذوة الشعر، فإذا هو يحيى فى أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضًا خراسان التى أهملها مؤرخو أدبنا مع ازدهار الشعر فيها ازدهارًا رائعًا»[2].

والحق أن الدكتور شوقى ضيف قد أبرز عصر بنى أمية إبرازًا جيدًا خصبًا، وحدد ملامح التجديد فى هذا العصر تحديدًا دقيقًا عميقًا، وبخاصة وهو يتحدث عن شعر

(١) الدكتور شوقى ضيف: العصر الإسلامى (دار المعارف ١٩٧٨ الطبعة الثامنة).

(٢) المصدر السابق ٥، ٦.

النقائض، أو عن الشعر السياسى الذى عكس نظريات الخوارج والشيعة والزبيريين فى الحكم والسياسة والصراع الفكرى، أو وهو يتحدث عن ازدهار التدوين «فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبوى»[1].

كما حدثنا عن مصنفاتهم «فى المغازى والتاريخ وقصص الأنبياء وفى المثالب والمواعظ، وفى مسائل العقيدة من قدر وغير قدر، وفى الأغانى والمغنين».

ولكن تبقى عيــوب المنهـــج التــاريخى، وهى تـــلاحق الدارسين، فتصيب دراساتهم ببعض الخلل وببعض القصور. ثقل نسبة الخلل والقصــور، أو تزيـد بحسب قدرة الـدارس وثقافته ومـواهبه فى التـأصيل والتـذوق والتحليل والكشف والابتكار.

وقد أخذ المجلد عن «العصر الإسلامى» نصيبه من هذا القصور وذلك الخلل، وأرجو أن يغفر لى أستاذنا الدكتور شوقى ضيف هذا الوصف للمنهج التاريخى، فلقد حاولت أن أسيغ هذه التقسيمات التى جاءت فى هذا المجلد بكتابيه، فلم

(١) المصدر السابق ٦، ٧.

أستطع. وحاولت أن أجد أساسًا جماليًا وفنيًا، أدرك من خلاله تلك الأحكام والأفكار التى بثها عبر هذا المجلد فلم أتمكن، وظل الأمر محتاجًا - فى نظرى - إلى جدل ومعاودة نظر.

ولعل أستاذنا الجليل لا يضيق بهذا الحوار أو ذاك الجدل، فهو عندنا فى المكانة الرفيعة من الإجلال والتقدير.

والقضية التى سأناقشها فى بداية مناقشاتى لهذا المجلد، هى غلبة الدراسات المساعدة، أو الخلفيات التاريخية والاجتماعية والفكرية والروحية، فقد أخذت هذه الخلفيات نحو نصف الكتاب، فى حديث مجرد عن الإسلام وما أشاع من قيم، وعن القرآن والحديث، والمراكز التى ازدهر فيها الشعر، وكان يمكن أن يقتصر الأمر على صفحات معقولة، ثم يتحدث عنها بعد ذلك حديثًا مباشرًا وهو يتناول الشعر والنثر فى هذين العصرين.

كان هذا الاتجاه سيوفر عليه جهدًا شاقًا، ويفسح المجال أمامه للدراسة الفنية، ولكن يبدو أن طبيعة المنهج التاريخى تحمل فى تضاعيفها قيودًا عسيرة على حرية الدارسين والباحثين.

مسألة أخرى أريد أن أناقشها فى هذا الكتاب، تتصل بفكرة الخضرمة والشعراء المخضرمين. وقد قلت من قبل إن الخضرمة مصطلح تاريخى، أو إنْ شئت الدقة، واقعة تاريخية. فنحن عندما نتحدث عن «أبى ذؤيب الهذلى» أو «حسان ابن ثابت» أو «زهير بن أبى سلمى» أو ابنه «كعب» أو «لبيد» أو «الحطيئة» أو «النابغة الجعدى» باعتبارهم مخضرمين، فإن ذلك يعنى أن هؤلاء الشعراء قضوا أعوامًا من عمرهم فى الجاهلية، وعاشوا بعد مشرق الإسلام أعوامًا أخرى، بصرف النظر عن تطور شعرهم بعد الإسلام أو عدم تطوره، وتطور الشعر وتجدده مسألة فنية وقضية جمالية، لا ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالتاريخ أو المكان، وإنما ترتبط بعناصر أخرى مركبة ومعقدة يمكن أن نسميها «التقاليد الجمالية». فلكل حضارة أو أمة أو مجموعة من الناس «تقاليد جمالية» تتجلى فى طريقة التعبير، ووسائل التفكير والتصوير، والقدرة على الإيحاء، وإدراك الأدوات التى تجعل الصياغة الفنية للأدب موحية مؤثرة.

ولقد ظلت «التقاليد الجمالية» للأدب الجاهلى بشعره ونثره سائدة فى الفترة الأولى التى سماها الدكتور شوقى

ضيف - وغيره من الدارسين - عصر صدر الإسلام، بصورة كاملة. وظلت سائدة أيضا بصورة غالبة ومؤثرة على الأدب بكل أجناسه فى عصر بنى أمية، وامتدت على نحو ما إلى العصر العباسى، ولم يحدث التطور الكبير إلا فى هذا العصر، حيث نشأت (حساسية فنية) جديدة، تختلف عن الحساسية الفنية التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى، وعصر بنى أمية، وهنا تطور الأدب تطورًا عميقًا بصورة متكاملة، لست أنكر وجود بعض الروافد التى ظلت فى عصر بنى العباس أيضا تحمل صورًا من «التقاليد الجمالية» التى كانت سائدة فى العصرين الجاهلى والأموى، ولكن ظلت هذه الروافد مجردة أنماط متميزة، لا تشكل الحساسية الفنية العامة، بل لقد استمرت هذه الأنماط تظهر على نحو ما فى كل عصور الأدب العربى.

ولست أنكر أيضًا ظهور أنماط جديدة متطورة، تختلف عن «التقاليد الجمالية» التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى، وعصر بنى أمية. ولكنها ظلت أنماطًا خاصة، لم تستطع أن تشكل الحساسية الفنية.

وفى رأيى: أن على دارس الأدب العربى - إذا أراد أن

يؤرخ له - أن يفحص بدقة تلك «التقاليد الجمالية». وأن يتتبع - فى ريث وأناة - «الحساسيات الفنية» على امتداد التاريخ، ويرصد تطور تلك الحساسيات. ويقف بالدرس المفصل عند كل حساسية فنية من تلك الحساسيات، وبذلك يتحول تاريخ الأدب العربى، تاريخًا فنيًّا تتجلى فيه «التقاليد الجمالية»، وتتضح طرائق التفكير والتعبير ووسائل الصياغة والتصوير. وأعترف أن مصطلحى «التقاليد الجمالية» و «الحساسية الفنية» اللذين أعنيهما فى هذا المجال فى حاجة إلى إيضاح دقيق وتحديد صارم، ليس هنا مجاله، ولكنهما - على أية حال - لا يعنيان التغير فى موضوعات الأدب، فلا يمكن أن أقول إن هناك «حساسية فنية جديدة» أو «تقاليد جمالية» جديدة لمجرد أن الشعراء المخضرمين بدءوا يذكرون فى قصائدهم ألفاظًا ومعانى أو تراكيب تتردد فى «القرآن» أو «الحديث النبوى». فقد تتردد تلك الألفاظ والتراكيب والمعانى فى قصائد الشعراء، ويظل مع ذلك شعرهم سائرًا على نهجه القديم وتقاليده الجمالية.

ومن هنا أختلف مع أستاذنا الدكتور شوقى ضيف فى تلك الفكرة التى حاول أن يثبتها، وهى أن الشعر فى صدر

الاسلام - وكذلك النثر - تأثر تأثرًا كبيرًا بالإسلام، لمجرد أن صَوَّرَ الشعراء تجاربهم فى الفتوح الإسلامية، أو تأثروا بالقيم الروحية والفكرية التى صاحبت مشرق الإسلام. أو أنشئوا «آيات بديعة من المواعظ الدينية، كما أنشئوا ضروبًا من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية - على حد تعبيره - ولكننى أتفق مع هؤلاء الذين قال عنهم إنهم «يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل فى أشعار المخضرمين»[1] وعندى أن الشعراء فى صدر الإسلام، بل وفى عصر بنى أمية، قد تأثروا شخصيًّا بالإسلام وحارب بعضهم فى سبيل نشر الدعوة، وظهرت أصداء هذا التأثر على بعض معانيهم، وبعض تعبيراتهم، وبعض ألفاظهم، ولكن شعرهم ظل فى إطار القصيدة الجاهلية من الناحية الفنية خاضعا «لتقاليدها الجمالية» و «حساسيتها الفنية».

ليس معنى ذلك أننى أنكر أثر الإسلام فى الشعر العربى، فهذا ما لم يطف بذهنى على أى نحو من الأنحاء، فلاشك أن الإسلام أثر أعمق تأثير فى الحياة الإنسانية كلها، وأحدث أكبر التحولات الحضارية فى تاريخها.

---

(١) المصدر السابق.

وكان «القرآن» أعظم كتاب أحدث فى تاريخ العرب أكبر التحولات الفكرية والفنية، وفى رأيى أن «القرآن» هو الذى غير التقاليد الجمالية للأدب العربى، وأرسى تقاليد «جمالية جديدة» وأشاع «حساسية فنية» مختلفة عن الحساسية الفنية التى كانت سائدة.

ولكن متى ظهرت هذه الحساسية، وما نوعها؟ وكيف تكونت؟

أعتقد أنها ظهرت فى عصر بنى العباس، ففى هذا العصر كانت الأجيال الجديدة التى ولدت وتكونت فى ظلال الإسلام. قد تأثرت لا شعوريًّا بالقيم الفنية والجمالية فى كتاب الله، تأثرت بالجملة القرآنية وبموسيقاها. وبطريقتها فى الإيحاء والتصوير، والتعبير.

ولم يكن القرآن مجرد كتاب أدب، بل كان، إلى جانب ذلك، كتاب فكر ودعوة جديدة، جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، فامتزج سحر الأداء بروعة الأفكار، بالعبق الروحى الذى يشعه ذلك الجانب الغيبى فى هذا الكتاب الباهر، وحدث هذا المزيج الجديد الذى أثر تأثيرًا عميقًا فى القلوب والعقول والأذواق، وتكونت هذه (التقاليد

الجمالية) الجديدة بعد مضى الزمن الكافى، وظهرت «الحساسية الفنية» الجديدة فى عصر بنى العباس. وخلال هذه الرحلة الزمنية التى قطعتها هذه «الحساسية الفنية» الجديدة حتى تكونت، حدث تطور كبير فى الوسائل المادية والأفكار والعلاقات، وظهرت على مسرح الحياة الإنسانية الدولة الإسلامية. ولكن يجب أنْ نذكر أنَّ «التقاليد الجمالية» تجىء فى النهاية تتويجًا للتطورات المادية والروحية والفكرية وطرائق الحياة. ومن هنا تبدأ «الحساسية الفنية» الجديدة فى تأثيرها، وعملها، حتى تجىء حساسية فنية أخرى. وهكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

دراسة العصر العباسى

فإذا ما وصلنا إلى العصر العباسى، هالنا ذلك التطور الكبير فى الأدب بكل أجناسه.

ولقد برز ذلك بشكل لافت للنظر فى كتاب الدكتور شوقى ضيف حيث خصص لدراسة هذا العصر مجلدين كبيرين يبلغان نحو ١٣٢٦ صفحة، المجلد الأول سماه «العصر العباسى الأول»، والمجلد الثانى سماه «العصر العباسى الثانى».

وهذا مسلك فى الدرس الأدبى سلكه كثير من الباحثين قبل الدكتور شوقى ضيف، فالأستاذ محمد عاطف صنع هذا الصنيع فى قسمة العصر العباسى، حيث قسمه إلى طورين اثنين، وكذلك فعل محمد نايل المرصفى، وكذلك أحمد الإسكندرى، وأحمد أمين، أما جرجى زيدان فقد قسم هذا العصر إلى أربعة أقسام.

ولا أريد أن أناقش فكرة هذا التقسيم، فأنا من الذين

يعترضون - أساسًا - على فكرة تقسيم الأدب العربى إلى عصور تابعة للعصور السياسية والتاريخية، ثم أن هذه مسألة تناولها قبلى بعض الدارسين، ومن أهم من تناولوها صديقنا الدكتور شكرى فيصل فى كتابه «مناهج الدراسة الأدبية فى الأدب العربى». ولكن ينبغى أن أقرر فى بداية حديثى عن دراسة الدكتور شوقى ضيف لهذا العصر أنها من أحسن الدراسات الأدبية لهذا العصر، إن لم أقل أحسنها جميعًا، فقد أبرزت مظاهر هذا العصر من النواحى الفكرية والفنية والاجتماعية، وحددت ملامحه التاريخية، وأظهرت قسماته السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وأشهد أن الدكتور شوقى ضيف حاول أن يعطينا - على الرغم من المنهج التاريخى - مذاق العصر وألوانه المختلفة، كما حاول أن يحدد لنا التيارات الفكرية والفنية والروحية التى ظهرت فى غضون هذا العصر المترامى، والثقافات الأجنبية من فارسية ويونانية وهندية. كما حاول أن يقف على مذاهب الشعر الفنية وكذلك مذاهب النثر.

عَرَّفَنا بشعراء السياسة والمديح والهجاء على اختلاف نزعاتهم الفكرية ومعتقداتهم السياسية، سواء منهم من دافع

عن العباسيين ورأى أحقيتهم فى الخلافة، كأبى دلامة (نديم السفاح)، ومروان بن أبى حفصة، وسلم الخاسر، أو من ذاد منهم عن العلويين ودافع عن حقهم فى الخلافة، كالسيد الحميرى، ومنصور النمرى، ودعبل الخزاعى، ومحمد ابن صالح العلوى، والحمانى، والمفجع البصرى، وحدثنا عن تيار الغزل النقى العفيف عند أمثال العباس بن الأحنف. كما حدثنا عن شعراء الزندقة والمجون من أمثال حماد عجرد، ومطيع بن إياس، وصالح بن عبد القدوس، والحسين بن الضحاك، وأبى الشبل البرجمى. كما حدثنا عن شعراء الزهد والتنسك، من أمثال عبد الله بن المبارك، ومحمد بن كناسة، ومحمود الوراق، وخالد بن يزيد.

حدثنا عن شعراء المعتزلة، كالعتابى، والنظام، وبشر ابن المعتمر، ودرس اتجاهات التجديد عند بشار، وأبى نواس، وأبى العتاهية، ومسلم بن الوليد، وعلى ابن الجهم، وابن الرومى وأبى تمام.

وأوضح ملامح النزعة الشعبية عند الشعراء من أمثال «أبى الشمقمق» و«جحظة البرمكى»، و«الخبزأرزى».

أرانا صورًا من الزهد المفرط، وصورًا أخرى من المجون والانحلال.

والحق أن هذا العصر الخصب الفنى الجياش، لايزال فى حاجة إلى كثير من الدراسات الجادة الجديدة، فهذا العصر تلاقت فيه كل اتجاهات المجتمع الجديد. والحضارة الإسلامية الجديدة. وشهد امتزاج الثقافات المختلفة وانصهارها فى بوتقة الفكر الإسلامى. كما شهد امتزاج الأجناس المتعددة فى إطار الإسلام الذى لا يفرق بين الناس إلا بالتقوى «يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم».

كما شهد اصطدام النزعات والعقائد والسياسات، وشهد الثورات المتلاحقة، شهد الضعف والقوة، وشهد الخير والشر والصلاح والفساد.

ولاشك أن كل هذه العناصر قد أَثَّرَتْ على الناس تأثيرًا عميقًا، أَثَّرَتْ فى قلوبهم وعقولهم وأذواقهم، وأثرت بصورة خاصة فى الجيل الجديد الذى نشأ وترعرع وتثقف فى ظلال الإسلام.



على أننا نستطيع أن نؤكد الآن بعد أن عشنا مع

المجلدات الأربعة فى «تاريخ الأدب العربى» لأستاذنا الدكتور شوقى ضيف، أن الأدب العربى قد درس فى هذه العصور المختلفة دراسة علمية دقيقة، وأن الحياة العقلية والروحية لهذه الأمة، قد وضحت فى هذه الموسوعة وضوحًا كبيرًا، بل نستطيع أن نزعم أن تاريخ هذه الأمة وحضارتها وتقلباتها السياسية، قد درست فى هذه المجلدات الأربعة درسًا مفصلا، وعرضت بأسلوب أدبى أخّاذ يغرى بقراءتها، ويلذ ويمتع من يعيش معها.

ويستطيع الشاب الذى لم تتح له الظروف أن يدخل الجامعة، إذا قرأ هذه الموسوعة الرائدة، أن يفقه الأدب العربى بكل أجناسه، وأن يتعرف على تاريخ هذه الأمة وسياستها وحياتها العقلية .والحضارية، وهذه خير شهادة لكاتب وكتاب.

وأعتقد أن الدكتور شوقى ضيف، قد حقق حلم روّاد النقد والدراسة الأدبية فى مطلع هذا القرن.

فقد كان طه حسين، وأحمد أمين، وعبد الحميد العبادى، يريدون أن يدرسوا تاريخ هذه الأمة من نواحيها الحضارية والعقلية والأدبية والسياسية فى موسوعة يشتركون فى

تأليفها، يكتب طه حسين التاريخ الأدبى، ويكتب أحمد أمين تاريخ هذه الأمة الحضارى والعقلى، ويكتب العبادى تاريخها السياسى. وفى ظلال هذه الشركة الأدبية صدر كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين فى عام ١٩٢٨، وأشار طه حسين فى المقدمة التى قدم بها هذا الكتاب إلى هذه الأمنية قائلا:

«وثلاثتنا متضامنون فى هذا الكتاب على اختلاف أقسامه، قد استقل أحمد أمين بدرس الحياة العقلية، ولكنه قرأه معنا وأقررناه كما أقره، فنحن شريكاه فيه على هذا النحو، واستقل عبد الحميد العبادى بدرس الحياة السياسية، ولكنه قرأه علينا وأقررناه كما أقره، فنحن شريكاه فيه على هذا النحو، واستقللت بدرس الحياة الأدبية، ولكننا قرأناه جميعًا، وأقررناه جميعًا، فنحن جميعًا شركاء فيه على هذا النحو»[١].

ولم يخرج من هذه الموسوعة إلا الجزء الخاص بالمرحوم أحمد أمين، فقد أصدر بعد كتاب «فجر الإسلام» عدة كتب أخرى فى دراسة الحياة العقلية، منها «ضَحى الإسلام» فى ثلاثة مجلدات. و «ظُهْر الإسلام».

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام - الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٣.

ولهذا اعتبر موسوعة الأستاذ الدكتور شوقى ضيف - عن «تاريخ الأدب العربى» بالأجزاء الأربعة التى صدرت منها حتى الآن - تحقيقا لهذا المنهج الذى وضعه هؤلاء الرواد الثلاثة، فى الثلث الأول من القرن العشرين، وقد استطاع الدكتور شوقى ضيف - وحده - أن يؤرخ للحياة الأدبية والحياة العقلية والحياة السياسية. وإذا كنت قد اختلفت معه فى بعض مواطن هذه الموسوعة، فقد كان خلافًا حول المنهج التاريخى، وليس خلافًا على القيمة العلمية والأدبية لهذه المجلدات الأربعة الخصبة الثرية الغنية - وأتمنى أن ينجز الباحث بقية هذا التاريخ حتى يصل به إلى بداية العصر الحديث، وبذلك يكون قد درس الأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى اليوم.

شىء واحد وهام أريد أن آخذه على هذين المجلدين الكبيرين «العصر العباسى الأول» و «العصر العباسى الثانى»، وهو أن المؤلف قد تابع كل الذين أرخوا للعصر العباسى واعتبروه ذروة التطور الحضارى والتوسع العمرانى والنمو الاقتصادى والرفاهية، وعللوا تطور الأدب والفكر على ضوء تلك التطورات المادية. وهذه المقدمات صحيحة

إلى حد كبير، ولكن ربط الأدب والفكر بها هو المحتاج إلى معاودة نظر.

وكنت أنتظر من باحث كالدكتور شوقى ضيف - وهو من هو - عمق، ثقافة، ورهافة حس، وقدرة على التذوق والاستيعاب، والابتكار، أن يعيد النظر فى دراسة العصر العباسى على ضوء خبراتنا الثقافية المعاصرة.

ولهذا فالمأخذ الذى سآخذه على دراسة الدكتور شوقى ضيف للعصر العباسى، موجه إلى كل الدارسين، الذين نهجوا وينهجون هذا المنهج.

ولقد أشرت فى المقالة الماضية إلى أن العصر العباسى شهد ظهور (تقاليد جمالية جديدة) و (حساسية فنية جديدة) كانت هى الأساس الذى يمكن أن نعلل على ضوئه كل التطورات الفكرية والفنية والأدبية.

ولكن يجب أن نقرر - أيضًا - أن هذه الحساسية الفنية وتلك التقاليد الجمالية لم تنشأ بصورة فجائية فى العصر العباسى، ولكنها نشأت بعد تطورات حضارية واجتماعية كبيرة لحقت بنية المجتمع العربى والدولة الإسلامية منذ مشرق الإسلام. ونحن نعرف أن التقاليد الجمالية لأدب من

الآداب لا تنفصل عن تطوره الفكرى والروحى والمادى.

ولكن هذه التقاليد تنشأ بعد أن يكون المجتمع قد وصل إلى ذروة نضجه المادى والاجتماعى والسياسى، وهذا التطور يأخذ وقتًا طويلًا من الزمان تظهر بعده التقاليد الجمالية، ولا تضعف هذه التقاليد أو تندثر بمجرد ضعف المجتمع أو انحلال سياسته وتدهوره ماديًّا وسياسيًّا، بل تظل وقتًا طويلًا حتى يحدث تطور جديد يغير بنية المجتمع المادية، ثم يمضى وقت كاف، لتظهر تقاليد جمالية جديدة.

وأعتقد أن التقاليد الجمالية الجديدة التى ظهرت فى هذا العصر لم تكن نتيجة التطور المادى والفكرى والاجتماعى والسياسى الذى برز بشكل لافت للنظر، فهذا التطور نفسه كان نتيجة التغيرات الحضارية والروحية التى لحقت المجتمع العربى بعد مشرق الدعوة الإسلامية، والتى ظلت تعمل عملها فى الحياة والعقول والقلوب والأذواق، حتى وصلت إلى ذروتها فى العصر العباسى، ومن ثم تغيرت التقاليد الجمالية للأدب العربى، وتكونت تقاليد جمالية جديدة، ونشأت حساسية فنية تختلف عن الحساسية الفنية التى لازمت الأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى بداية

العصر العباسى، وليس من شك فى أن الإسلام هو الذى أنشأ هذه التقاليد الجمالية، وأن القرآن هو الذى كون هذه الحساسية الفنية الجديدة.

فلولا ظهور الإسلام لما ظهرت تلك التقاليد الجمالية على هذا النحو، وفى هذا الوقت. وقد طرقت هذا الموضوع فى بحث ألقيته فى مؤتمر الأدباء العرب بالجزائر فى عام ١٩٧٥ عن (ثورة التراث العربى) وتبين لى أن تاريخ العرب والمسلمين تحول - منذ مشرق الإسلام - إلى ثورة فى الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع، ثورة غيرت أذواق الناس وعقولهم ومشاعرهم وطرائق تفكيرهم ثورة نفذت إلى ضمائرهم فصاغتها، وجعلت لأصحابها طريقة جديدة فى تصور الأشياء، وفى الإحساس بها، وفى طريقة التعبير عنها. فقد دعا الإسلام إلى الإيمان بإله واحد، فرد صَمد غير محدود، له المثل الأعلى فى السماوات والأرض. ودعا المسلمين إلى العدل الإنسانى بكل صوره وأبعاده، عدل فى السياسة والاجتماع والاقتصاد. ودعا إلى التحرر الفكرى فى كل مجالات الحياة. ونزل القرآن على نبى الإسلام، وهو كتاب بلغ ذروة الفصاحة، وتحدى العرب أرباب اللسَّن والبلاغة فى

أن يأتوا بمثله فعجزوا، وطور الإسلام الحياة بجانبيه «الغيبى» و «العملى».

فالجانب الغيبى فى الدين: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

والجانب العملى فى الإسلام: هو صياغة هذا العالم البشرى كله صياغة جديدة، وإرساء مؤسساته الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وبرزت إلى الوجود مدرسة جديدة يمكن أن نطلق عليها «المدرسة المحمدية» التى تلقت عدة تدريبات.

تلقت تدريبًا روحيًا فى مدرسة الوحى عندما كان جبريل ينزل بالقرآن على الرسول العظيم، وتدريبًا عقليًا فى مدرسة النبوة عندما كان رجال هذه المدرسة يتلقون تعاليم الرسول ويسألونه، ويستفسرون منه عن كل شىء.

وتدريبًا اجتماعيًا فى مدرسة الحياة: فقد صبر هؤلاء الرجال وصابروا وهم يبشرون بالدين، وتحملوا من الآلام والاضطهاد والتعذيب ما تحملوا فى سبيل عقيدتهم. وهذه المدرسة هى التى قادت التحول الروحى والفكرى والاجتماعى، وغيرت خارطة العالم، فقد انتشر الإسلام فى

أنحاء الدنيا، وبدأت هذه المدرسة الجديدة تحكم وتنظم الحياة، وكونت تراثا كبيرًا فى أساليب الحكم والسياسة والأخلاق والاجتماع، وبدأت تصطرع مع الحياة والمجتمع فى عمليات تغيير مستمرة دائمة، وبدأ رجال هذه المدرسة يواجهون تحديات مختلفة نشأت بحكم ظروف كثيرة، فبدءوا يجتهدون فى السياسة والحكم. ويجتهدون فى تفسير الدين والقرآن، وبدءوا يواجهون عمليات المزج والانصهار التى راحت تعمل عملها فى العقول والنفوس بعد أن دخلت فى الإسلام عناصر من أجناس متعددة وديانات مختلفة وأصول اجتماعية متباينة، وثقافات متنوعة. وانصهرت كل هذه العناصر فى بوتقة الإسلام، فاعتنى الفكر الإسلامى، وتطورت الحياة الاجتماعية وتعقدت، ونشأت نظم جديدة وأفكار جديدة بفضل هذا الامتزاج وهذا الانصهار وهذا التلاقح العجيب. ونشأت الأحزاب السياسية ونشأت المدارس الفكرية، وتلاطمت النزعات والأفكار والأحزاب، ووقعت الحروب والفتن والمنازعات نتيجة هذا التحرر والإيمان.

هذه التحولات والتغيرات الحضارية استغرقت وقتًا طويلًا حتى وصلت ذروتها فى مطلع العصر العباسى،

وأحدثت هذا التغيير الجديد الذى أشرنا إليه، وكان القرآن هو الدستور الذى يهيمن على كل هذه التحولات.. كانوا يلتمسون عنده التفسير لكل مظاهر التحول الجديد، وكانوا يجدون فيه المتاع العقلى والروحى، وكان نسقًا جماليًا ارتفع بمواهبهم، وحفزهم على السمو على واقعهم الأدبى والفكرى، تأملوه طويلاً، وأمعنوا النظر فى تراكيبه وجمله، وسحرتهم فواصله وموسيقاه، وأداموا التفكير فى أسرار إعجازه.

وعندما نشأ جيل جديد فى ظلال هذه التغيرات والتحولات، ظهرت التقاليد الجمالية الجديدة والحساسية الفنية، وكان ذلك فى مطلع العصر العباسى، ولهذا أرى أن الأدب الإسلامى من الناحية الفنية والجمالية هو الذى ظهر فى العصر العباسى بكل ألوانه. وهذا حديث يحتاج إلى دراسات متعمقة مفصلة سأقوم بها فى غير هذا المكان.

وتكفى هذه الإشارة لأقرر أن الذين يربطون الأدب فى العصر العباسى بما وقع فيه من أحداث تاريخية وسياسية يرتكبون خطأ كبيرًا، ويتجاهلون جذور الأشياء، وأصول المسائل.

شوقى ضيف ومذاهب الأدب العربى*

(١)

ونعـود مـرة أخـرى إلى مـا بـدأنـا بــه هـذه السلسلة من الدراسات عن الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، لنفصل القول فى الإنجاز الرائع الذى قدمه فى مطلع حياته العلمية والأدبية.

فقد بدأ الرجل مسيرته العلمية بمحاولة جادة عميقة هى تأصيل مذاهب فنية للأدب العربى، وتتمثل هذه المحاولة فى عدة كتب من كتبه أهمها فى نظرى:

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
(الطبعة الأولى - أبريل ١٩٤٣).
* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
(الطبعة الأولى - أبريل ١٩٤٦).
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
(الطبعة الأولى- يناير ١٩٥٢).

---

* المقال السادس (العدد ٧٨ من الثقافة مارس ١٩٨٠).

هذه الكتب الثلاثة وغيرها من كتب شوقى ضيف، كان يربطها خيط واضح، ويجمعها هدف موحد، هو محاولة التأصيل النظرى، وإرساء أسس مذاهب فنية للأدب العربى.

وهذه رسالة اضطلع بها الجيل الثانى من النقاد والدارسين، الذى جاء بعد جيل الرواد، الذى حمل أعباء البعث والتجديد، ورفد الثقافة العربية بتيارات الفكر الإنسانى، ولم يلتفت بصورة واضحة - فى معظم الأحيان - إلى تأصيل تلك المذاهب وتحديد مسارها واتجاهاتها، كما فعل هذا الجيل الثانى، الذى يعتبر شوقى ضيف من أهم أعلامه وأبرزهم.

ولقد أشرت فى الفصل الأول من هذه الدراسات إلى أن الدكتور شوقى ضيف قد اهتدى إلى ثلاثة مذاهب فنية، درس الأدب العربى : شعره ونثره فى إطارها. وهذه المذاهب هى :

* مذهب الصنعة.
* مذهب التصنيع.
* مذهب التصنع.

وربما لا تكون هذه التسميات ذات إغراء جمالى، لقارئ العقد الثامن من هذا القرن، الذى لا تربطه وشائج قوية بحضارتنا العربية وتراثنا الأدبى، ولكنها على أية حال أصبحت مصطلحات فنية على هذه المذاهب، ولا مشاحة فى الاصطلاح كما يقال.

المهم أن الدكتور شوقى ضيف، حاول منذ هذا الوقت المبكر من حياته العلمية أن يبحث لأدبنا العربى عن تقاليد جمالية، يدرسه من خلالها، ويتذوق نصوصه على ضوئها، وهى فكرة عميقة مركبة تحتاج إلى ثقافة عميقة متنوعة، ومعرفة دقيقة بالتراث العربى، وإلمام واسع بتيارات الأدب واتجاهاته ومذاهبه، وحاسة فنية مرهفة متيقظة، وعقل ناضج، وقدرة على الابتكار ودراية واسعة بأساليب العرض المشع الجذاب.

وقد جمع الدكتور شوقى ضيف كل هذه الخصائص والمميزات، إلى جانب سجاياه الشخصية وعاداته المعرفية، وانقطاعه التام للعلم والدرس والكتابة، بعيدًا عن كل المغريات والاتصالات، أو التأثر بالمواضعات الاجتماعية التى تشغل الناس، وتستنفد طاقاتهم وأوقاتهم. ولعل هذا هو السبب - أيضًا - فى غزارة إنتاجه وتنوعه وعمقه

المهم أن هذه التقاليد الجمالية التى أرساها الدكتور شوقى ضيف، وحددها، وضبط مصطلحاتها، لاتزال صالحة حتى اليوم لدراسة الأدب من خلالها. ولاتزال قادرة على الإلهام والتأثير، ودفع أجيال أخرى إلى ارتياد آفاق جديدة لتطويرها والبناء عليها.

وفكرة التقاليد الجمالية استقرت عند الدكتور شوقى، بعد أن رفض الأفكار الشائعة والمصطلحات السائدة فى النقد العربى القديم، والتى كانت تقسم الشعراء إلى قسمين، قسم يطلقون عليه أصحاب الطبع، وقسم ثان يطلقون عليه أصحاب الصنعة. فالشعر - كما يقول - «متأثر بجهد حاضر وموروث أكثر من تأثره بما يسميه نقادنا باسم الطبع. وهل هناك شعر لا يعمد فيه صاحبه إلى بعض تقاليد فى أساليبه وموضوعاته ومعانيه؟ إن من يرجع إلى العصر الجاهلى يجد الشعر خاضعًا لتقاليد ورسوم كثيرة، يتوارثها الشعراء، سواء فى ألفاظه ومعانيه، أو فى أوزانه وقوافيه، بحيث لا يستطيع مطلقًا أن يذعن لفكرة الطبع وما يطوى فيها، من أن الشعر فطرة وإلهام، فقد كان الجاهليون يصنعون شعرهم صناعة، ويعملونه عملا، وهم فى أثناء هذه

الصناعة والعمل يخضعون لمصطلحات ورسوم كثيرة»[1].

والدكتور شوقى لا ينكر أن الشعر فى الأصل الموهبة، ولكنه يؤكد أن هذه الموهبة «لا تلبث أن تتحول عند صاحبها إلى ممارسة ودراسة طويلة لتقاليد ومصطلحات موروثة فى تاريخ الفن، وهو يتقيد بهذه التقاليد والمصطلحات فيما يصنعه ويعمله تقيدًا شديدًا، وكان العرب القدماء أنفسهم يسمون شعرهم صناعة، ويصفونه بأوصاف الصناعات، وكذلك كان الشأن عند اليونان وعند الأمم الحديثة جميعًا، ومن أجل ذلك كان النقاد فى الأمم الغربية يقرنون الشعر إلى النحت والتصوير والرقص والموسيقى، فمثله مثل هذه الأعمال الفنية، يقوم على جهد وكدح»[2].

ويرى أن الشعراء - حتى فى العصر الجاهلى - كانوا أصحاب صنعة، وكانوا يقبلون على شعرهم إقبال الصانع على حرفته، يوفون لعملهم الرسوم والتقاليد. ويقول «ومن يرجع إلى نماذج امرئ القيس، وهو من أقدم الشعراء الجاهليين، يلاحظ أنه يعنى بالتصوير فى شعره، كأن التصوير

---

(١) الدكتور شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٧ (الطبعة العاشرة، دار المعارف ١٩٧٨).

(٢) المصدر السابق والصفحة.

غاية فى نفسه، فالأفكار تتلاحق فى صفوف من التشبيهات، حتى تستتم هذا الفن من التصوير، وكأنما القصائد برود يمانية، ففيها ألوان ونقوش ورسوم على صور وأشكال كثيرة، وغير امرئ القيس من الجاهليين مثله يعنى بالتصوير فى شعره عناية بالغة، كأنه أصل مهم من أصول صناعتهم»[1].

وتشتمل هذه التقاليد الجمالية أيضًا على عدة أصول، منها ما يتصل بالموسيقى، «فالقصيدة تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات، وهى تبلغ عادة أربعين بيتًا، وقد تزيد إلى مائة، وقد تنقص إلى عشرة. ويلتزم الشاعر فى جميع هذه الأبيات وزنًا واحدًا يرتبط بنغماته وألحانه فى النموذج الفنى كله، كما يلتزم حرفًا واحدًا يتحد فى نهاية هذه الأبيات يسمى الرَّوِىّ»[2].

وبعض هذه التقاليد - كما أشار شوقى ضيف - يتصل بالأصول الصوتية والبعض الآخر يتصل بالتصوير.

ويحاول الدكتور ضيف أن يمتحن بعض قصائد من الشعر الجاهلى على ضوء هذه التقاليد الجمالية، فيقف عند مُعَلَّقة

---

(١) المصدر السابق ص ١٥.　　(٢) المصدر السابق ص ١٤.

امرئ القيس، ويذكر منها أبياتًا من قوله:

وقد أغتدى والطير فى وكناتها
بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل
مِكَرٍّ مُقْبل مُقْبلٍ مُدبرٍ معًا
كجلمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِن علِ

إلى قوله:

كأنَّ دماءَ الهادياتِ بنَحْرِهِ
عصارة حناء بشيب مُرَجَّلِ

ويرى أن التشبيهات قد تراكمت فى هذا الوصف «وظهر فيها ضرب من التركيز والإيجاز، وارجع إلى قوله فى البيت الأول «قيد الأوابد»، فقد كان القدماء يعجبون بهذه الكلمة إذ عبرت فى إيجاز بالغ عن سرعة الفرس وحِدَّتِه فى الجرى والنشاط، فهو قيد الأوابد، كلما أرادها قيدها، ولم تستطع إفلاتًا منه ولا فرارًا. وهذا الإيجاز البالغ يدل على مجهود عنيف كان يقوم به امرؤ القيس حتى ينفى عن شعره كل إطناب فيه»[1].

ويتابع تحليل أبيات امرئ القيس ويلمح قدرته على

(١) المصدر السابق ص ١٦.

التشبيه الدقيق، مثل تشبيه خاصرة الفرس بخاصرة الظبى، وساقه بساق النعامة، وفى وصف سرعة عَدْوِه وانطلاقه بالذئب والثعلب فى الوثب السريع، ثم يقول عنه إنه مكتنز أملس كالحجر يُسَحق عليه الطيب، أو كالحنظلة فى ملاستها وبريقها، وقد امتزجت دماء الصيد على صدره كأنها الحناء تمتزج بالشيب»[1].

ويحدثنا الدكتور شوقى ضيف أن «هذه الكثرة الغامرة من الصور والخيالات التى أحكمها امرؤ القيس فى تصويره... تدل على أن الشاعر الجاهلى كان يستخدم من حين إلى حين بعض المحسنات المعنوية واللفظية التى عرفت فى العصر العباسى، وأكثر الشعراء من استخدامها... ولعل فى ذلك ما يدل على أن الفكرة التى تعودنا أن نفهم بها الشعر القديم، والتى تذهب إلى أنه خالٍ من الصنعة فكرة غير صحيحة، فإن هذا الشعر ينزع به صاحبه إلى ضرب من الجمال فى التعبير، إذ يملؤه بالصور والتشبيهات، ويطلب أن يعجب به الناس من حوله، وأن يقع منهم موقعًا حسنًا، موقع الثياب الملونة أو الثياب اليمنية المنمقة»[2].

---

(١) المصدر السابق ص ١٧.
(٢) المصدر السابق والصفحة.

ويلتقط الدكتور شوقى ضيف هذا الخيط لينسج منه بعد ذلك مذاهب فنية للأدب العربى على امتداد عصوره.

فهذه التقاليد الجمالية فى مطالع الشعر الجاهلى هى بداية المذاهب الأدبية وقد أطلق عليها «مذهب الصنعة»، حيث كان الشاعر الجاهلى «يخضع لتقاليد تتناول ما يقوله وكيف يقوله، تتناول ما ينظم فيه والطريقة التى ينظمه بها، وبعبارة أخرى تتناول الموضوعات التى يعالجها وما يتخذه فيها من طرق فنية فى التعبير والموسيقى والتصوير»[1].

ويرى الباحث أن هذه التقاليد بدأت بسيطة، ثم أخذت تتعقد شيئًا فشيئًا فى كل مذهب من المذاهب.

فشعراء مذهب الصنعة مثلا بدأت الصنعة فى شعر بعضهم تأخذ شكلًا بسيطًا ثم أخذت تتعقد فى شعر البعض الآخر، وتأخذ شكل مهارات فنية ومعاودات ومراجعات «فكعب، وجرول - أى الحُطَيئة - ينتخلان شعرهما، ويأخذانه بالثقاف والتنقيح ويجمعان له كل ما يمكن من وسائل التجديد والتحبير، وكذلك كان يصنع صنيعهما الشماخ ومزرد»[2].

---

(١) المصدر السابق ص ١٩. (٢) المصدر السابق ص ٢٤.

ولما تجمعت لها عدة تقاليد جمالية ونضجت وتعقدت أخذت شكل المدرسة رائدها وممثلها زهير بن أبى سلمى «صاحب الحوليات، فقد كان يأخذ شعره بالثقاف والتنقيح والصقل، وكأنه يفحص ويمتحن ويجرب كل قطعة من قطع نماذجه، فهو يعنى بتحضير مواده، وهو يتعب فى هذا التحضير تعبًا شديدًا»[1].

ويحدثنا الدكتور شوقى ضيف عن هذه المدرسة بقوله:

«وإذن فنحن أمام مدرسة فى الشعر أستاذها زهير، وتلاميذها جماعة، تارة يكونون من أهل بيته، وتارة لا يكونون. وهى مدرسة (كانت تعتمد على الأناة والروية، وتقاوم الطبع والاندفاع فى قول الشعر مع السجية، فكثر عندها التشبيه والمجاز والاستعارة، واتكأت فى وصفها على التصوير المادى، وأن يأخذ الشاعر نفسه بالتجويد والتصفية والتنقيح ثم التأليف»[2].

ولهذه المدرسة نماذج كثيرة تقفنا على قيمها الجمالية وطرائقها التعبيرية، وقد وقف الدكتور شوقى ضيف عند زهير رأس هذه المدرسة، فتناول نماذج من شعره موضحًا مذهبه فى الصنعة.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥.
(٢) المصدر السابق والصفحة.

شوقى ضيف ومذاهب الأدب العربى*

(٢)

زعيم مذهب الصنعة فى نظر الدكتور شوقى ضيف، هو زهير بن أبى سلمى. فهو على حد تعبيره يعرف سر مهنته «إنه يعرف كيف يصور الحوادث الماضية، فإذا هى تمر أمام أبصارنا وكأننا نشاهدها، وهو لا يبتغى ذلك من تشبيهات متراكمة، إنما يبتغيه فى طبيعة التعبير نفسه، فيعبر بالفعل المضارع حتى يجعلنا نتمثل حوادثه الماضية، وهو لا يكتفى بالتفصيل ولا باستعمال العبارات التى تجعل الأشياء كأنها منظورة، بل هو يضيف التدبيج، أى لون موصوفاته إلى تصويره، حتى يأخذ الشكل ويستتم الوصف»[١]. وقد ربط بهذه التقاليد الجمالية التى أرساها زهير وأضرابه الشعر الغنائى الخالص الذى كان يصحب بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية، من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى.

---

(١) الدكتور شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٧ (دار المعارف الطبعة العاشرة ١٩٧٨).

وتتبع تطور مذهب الصنعة عبر العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصر الأموى. ثم واصل رصد ازدهار هذا المذهب وتعقده فى العصر العباسى فى شعر بشار، وأبى نواس، وأبى العتاهية، مع ملاحظة دقيقة للتطورات الحضارية التى لحقت بالحياة فى هذا العصر وتغير الذوق العام. والمستوى الذى يعيش فيه الخلفاء والقواد والأمراء. فقد كانت بيوت هؤلاء «تكتظ بالستور والبسط المعلقة على الحوائط والنوافذ، متنافسة بألوانها الزاهية، وما عليها من التصاوير المذهبة، وكانت الحيطان والسقوف والأبواب تذهّب وتفضّض. كما كانت الغرف والأبهاء تزدان بالأثاث النفيس والفرش الأنيقة»[1].

ويحدثنا الدكتور ضيف أن الشعراء لم يكونوا بعيدين «عن هذا الجو من التصنيع والزخرفة والزينة، فقد كانوا ينادمون الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة، ويختلطون بالجوارى والإماء. وانصبّ فى حجورهم كثير من الأموال التى جعلتهم يعيشون فى ترف ونعيم بالغ، بل يحققون كل ما يريدون من تصنيع وتنميق فى حياتهم»[2].

(١) المصدر السابق ص ١٧٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٣.

فلا عجب أن يتسرب هذا التصنيع والتنميق من حياتهم الخاصة إلى شعرهم وفنهم «وهى حال طبيعية، توجد دائماً فى الصنائع حين يعم الترف، فإذا هى تتحول إلى زخارف دقيقة، وليس الشعر وحده الذى أخذ يسود فيه هذا التصنيع، فقد كان يشيع فى فن العمارة، وبناء المساجد والقصور، كما يشيع فى التصوير الذى كان يستخدم زينة وزخرفاً للكتب والقصص»[1] ونما هذا التنميق والتصنيع مع الزمن وأثر فى الشعر والشعراء فأصبحت القصيدة «كأنها واجهة لمسجد مزخرف بديع، قد تألق فى وَشْى مرصع كثير»[2]. وبذلك ظهر مذهب جديد فى رأى الدكتور شوقى هو «مذهب التصنيع».

خصائص مذهب التصنيع:

وقد كان مسلم بن الوليد من أوائل الذين أدخلوا هذا المذهب إلى الشعر العربى، فهو يعتمد فى صياغة شعره «على النحت وقوة البناء، كما يعتمد على الزخرف والتصنيع حتى يصبغ هذا الديباج أو النسيج المتين بالألوان والأطياف»[3].

(١) المصدر السابق ص ١٧٤.

(٢) المصدر السابق والصفحة.

(٣) المصدر السابق ص ١٨٤.

وأهم شاعر يمثل مذهب التصنيع - فى رأى الدكتور شوقى ضيف - هو أبو تمام، فقد انتهى المذهب عنده إلى الغاية التى كان يرنو إليها شعراء العصر العباسى من الزخرف والتنميق، وكأن الشعر «أصبح تنميقًا وزخرفًا خالصًا. فكل بيت فى القصيدة، إنما هو وحدة من وحدات هذا التنميق والزخرف، وهو ليس زخرفًا لفظيًّا فحسب، بل هو زخرف لفظي ومعنوى، يروعنا فيه ظاهره وباطنه، وما يودعه من خفيات المعانى وبراعة اللفظ»[1].

وقد حدثنا عن تصوير أبى تمام وتجسيده للمعانى، وتصويره المتحرك المشخص، واستخدامه لألوان جديدة من التصنيع يبتهج بها العقل «وهى ألوان قاتمة كانت تتسرب إليه من الفلسفة والثقافة العميقة... فقد استطاع أن يستوعب الفلسفة والثقافة، وأن يحولها إلى فن وشعر، إذ تتعلق بها ألوان التصنيع السابقة. أو بعبارة أدق يتعلقان هما بتلك الألوان، فإذا كل لون منها يعبر عن فكر عميق، فالطباق والجناس والتصوير والمشاكلة كل ذلك يزدوج بالفلسفة وألوان الثقافة القاتمة، فيجلله الغموض فى كثير

(١) المصدر السابق ص ٢٢٣.

من جوانبه وأجزائه، ولكن أى غموض ؟ إنه الغموض الفنى الذى يشبه تنفس الفجر، فالأفكار والصور وكل ما يعتمد عليه أبو تمام من ألوان يلتف فى ثياب من هذا الغموض، بل فى ألوان قاتمة من هذه الظلال التى لا تحجب النور، ولكن ترسله بقدر، فيضفى على كل ما يمسه حسنًا وجمالاً»[1].

فإذا تعقدت الحياة وضعفت الدولة العباسية وكثرت الألقاب عقمت الأفكار والفنون، وتحول الشعر إلى لون آخر سماه الدكتور شوقى ضيف «مذهب التصنع»، وانتهى إلى التلفيق فى خواطره وصنع عباراته وأساليبه، ويتخذ الدكتور ضيف «مهيارًا الديلمى» مثالا لهذا الجانب، أو هذا المذهب.

ويضع الدكتور شوقى ضيف فى هذا المذهب شعراء من أكبر شعراء العربية من أمثال المتنبى، والشريف الرضى، والمعرى.

هذه المذاهب الثلاثة التى اصطنعها الدكتور شوقى ضيف لدراسة الشعر العربى، أطلنا فى نقل فقرات عنها من كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، «ليقف القارئ على

(١) المصدر ٢٣٩.

صورة هذه المذاهب كما صاغها صاحبها، وهى تسميات لاتزال تحمل إشعاعات جمالية عميقة، وإن كنا نختلف مع الباحث الفاضل فى بعض التطبيقات، وبعض النماذج، ففى رأيى أن المتنبى والمعرى يستعصى شعرهما على أن نصنفه فيما سماه الدكتور ضيف «مذهب التصنع»[1].

وربما ذهبت إلى أبعد من هذا وقلت: إن شعرهما يستعصى على أن يصنف فى هذه المذاهب الثلاثة كلها.

وعيب آخر فى هذه المذاهب، وهو انعدام الحدود الفاصلة بينها بشكل قاطع، والأصل فى المذهب أن تكون له حدود واضحة تميزه عن المذاهب الأخرى، وتمنع تسرب أفكار المذاهب الأخرى إليه، فإذا انهارت هذه الحدود الواضحة اختلطت المذاهب وتشابكت، وهذا ما نلمحه فى بعض أجزاء الكتاب.

على أية حال استطاع الباحث الرائد أن يدرس الشعر العربى فى مختلف عصوره من خلال نظرية فنية قامت على أساس هذه المذاهب التى صك مصطلحاتها من جديد فى ضوء التراث النقدى العربى على امتداد عصوره، مع حس

---

(١) المصدر والصفحة.

فنى مرهف، وقدرة على التذوق والتحليل والتعليل، وإدراك عميق للتطورات الحضارية التى لحقت ببنية المجتمع العربى، والتى كانت تؤثر على الفنون والآداب. ولم يقتصر الدكتور شوقى ضيف على تطبيق هذه المذاهب على الشعر، بل امتد مجال تطبيقها إلى النثر.

وفى كتابه (الفن ومذاهبه فى النثر العربى) تتبع هذه المذاهب الثلاثة وطبقها على الخطابة والكتابة الفنية بما تشتمل عليه من قصص مكتوب، ورسائل أدبية محبرة، ووضع أعلام هذه الفنون فى إطار هذه المذاهب، فوقف عند الصنعة فى الكتابة الأموية، وقدم لنا عبد الحميد الكاتب وخصائص كتابته الفنية.

ودرس النثر العباسى وتناول الصنعة عند ابن المقفع وسهل ابن هارون، والصنعة الجاحظية. ثم تناول التصنيع عند ابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبى إسحاق الصابى.

ثم تناول بديع الزمان وتصنعه، والحريرى وتعقيداته. وأفرد الجزء الثالث للمذاهب الفنية فى الأندلس ومصر. وبذلك وضع الأسس العامة لمعاودة دراسة هذا النثر من خلال تصور متكامل ونظرية فنية جديدة تقربه إلى روح العصر.

على أن الدكتور ضيف لم يكتف بصياغة هذه الأسس النظرية للمذاهب الأدبية التى صكها وحدد مدلولاتها وطبقها على الأدب العربى شعره ونثره، ولكنه عاد مرة ثانية يقرأ الأدب العربى من خلال نظرات جديدة، يلمح فيها شيئا آخر يرتبط بالتطور والتجديد.

نظرات جديدة فى الدرس الأدبى

كان من الممكن أن يستكين الأستاذ الدكتور شوقى ضيف إلى الإنجاز الرائع الذى قدمه للدرس الأدبى، والذى تمثل فى دراسة الأدب العربى على ضوء مذاهب أدبية، كافح كفاحًا مضنيًا فى سبيل تأصيلها، وتحديد ملامحها، وصك مصطلحاتها، وتفسير معالمها، ولكن طاقاته العقلية وقدراته المعرفية، وذوقه المشحوذ، دفعته إلى ارتياد آفاق جديدة فى مجال الدرس الأدبى، وإرساء مجموعة أخرى من التقاليد النقدية، وإلقاء نظرات جديدة على ميادين من الدرس الأدبى كانت مستقرة.

وللباحث الفاضل غرام مشتعل بهز المسلمات الراكدة، والنظرات الثابتة فى مجال النقد والدراسة الأدبية.

والناظر فى كتابيه «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» الذى صدرت طبعته الأولى فى يناير ١٩٥٢ و «الشعر

وطوابعه الشعبية على مر العصور» الذى صدر فى عام ١٩٧٧ ، يدرك على وجه اليقين، هذا المسلك العلمى المتجدد.

ويستوى عند الباحث أن توافقه على آرائه، أو تخالفه، فهو معنى بالبحث والتمحيص، والتعميق، والاكتشاف والتجديد، دون التنكر للدراسات التى سبقته أو التهوين من شأنها، وقد حماه هذا المسلك العلمى الرفيع والمترفع، من الدخول فى خصومات ومجادلات حول الدرس الأدبى لا يفيد منها، وحصر كل خلافاته ومناقشاته حول القضايا الجادة التى يقتنع بأنها ستضيف جديدًا إلى تصوراته، أو ستضىء له جانبًا جديدًا لم يلتفت إليه.

وتلك طبيعة العلماء الذين يصلون إلى نتائجهم بعد تنقيب طويل، وإحاطة شاملة، وفحص دقيق لكل الجوانب، ولهذا يصعب أن يغيروا آراءهم بسهولة، أو يتنازلوا عن نتائج بحوثهم بسرعة.

وفكرة كتاب «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» كان الهدف منها الوقوف فى وجه تيار كبير ساد الدراسات الأدبية، وقرر عدة أحكام تناقلها الخلف عن السلف دون

نظر أو تمحيص، ومن هذه الأحكام أن الشعر العربى فى عصر بنى أمية كان قريب الشبه بالشعر فى العصر الجاهلى، وأن العرب قد «استمروا ينظمون شعرهم بعد الفتوح الإسلامية ونزولهم فى الأوطان والأقاليم الجديدة خارج الجزيرة، على شاكلة ما كان ينظمه أسلافهم، حتى أرسل الله لهم الموالى فى العصر العباسى، فطوروا لهم صورة شعرهم، وجددوا فى إطارها وخطوطها وألوانها فنونًا مختلفة من التجديد»[1].

هاجم الدكتور ضيف هذا الرأى هجومًا عنيفًا وقال فى مقدمة الطبعة الأولى من الكتاب: «ولا يعرف تاريخ الشعر العربى حكمًا جائرًا على حقائقه الأدبية مثل هذا الحكم الذى جعل العرب أحجارًا ينقلون من مكان إلى مكان، ومن عصر إلى عصر، ومن طور بداوة إلى طور حضارة، دون أن يتأثروا بما يصادفهم فى كل ذلك من مؤثرات حضارية وغير حضارية»[2] وانتهى إلى أن العرب كغيرهم من الأمم يتأثرون ويتطورون ويتفاعلون مع الأحداث «وشتان بين

---

(١) الدكتور شوقى ضيف: التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٧ (الطبعة السادسة دار المعارف سنة ١٩٧٧).

(٢) المصدر السابق والصفحة.

عربى الصحراء القديم، وعربى العصر الأموى الذى ورث كسرى وقيصر، وخرج من صحرائه ونزل فى الشام والعراق وغيرهما من الأقاليم الإسلامية»[1].

ولكى يثبت الدكتور شوقى ضيف هذا الحكم، درس بصورة مفصلة دقيقة بيئات الشعر الأموى بعد أن مهد لها بالحديث عن الإسلام وأثره فى الشعر، وملامح الشعر فى عصر الرسول، والشعر فى عصر الخلفاء الراشدين.

والبيئات التى تنفس فيها الشعر فى عصر بنى أمية هى «الحجاز ونجد والعراق والشام واليمن ومصر وبلاد المغرب والأندلس». هذا الإطار المكانى درسه دراسة عميقة، وفحص مكوناته الجغرافية وما اصطلح عليه من أحداث، وتعرف على ما احتدم فيه من تيارات حضارية.

ودرس بعد ذلك تطور هذا الشعر مع تطور الحياة الدينية، والحياة العقلية، والحياة السياسية، والحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية. ولمح بعد هذا الفحص المتأنى، التجديد فى المدح والهجاء، فوقف عند تحول الهجاء إلى نقائض عند الأخطل والفرزدق وجرير.

---

(١) المصدر السابق والصفحة.

وتعـرف على ألـوان جديـدة من الشعـر عنـد عمـر بن أبي ربيعة في غزلـه غير المـألوف الـذى «يصوز فيـه عشق المرأة له»[1].

وعند «ذى الرمة» الذى قدم لوحات وصفية رائعة، استخدم فيها قدرته على التشخيص والتجسيم والحشد والتركيز.

وحدثنا عن التجديد عند «الكميت» فى الشعر الفكرى الذى يدافع عن عقيدته وأفكاره، وكان الكميت زيديًّا، فدافع عن نظرية زيد بن على الشيعية، كما وقف عند خمريات «الوليد بن يزيد»، وعند أراجيز رؤبة، كما أشار إلى أثر البيئات الجديدة فى الشعر الأموى أثناء الفتوح الإسلامية، فقد نُظِم فيها شعر كثير صَوَّرَ المعالم الجديدة التى شاهدها العرب أثناء هذه الفتوح، وسجل ما فيها من ثلوج ونبات وحيوان. وصور أيضًا كل ما هنالك من رَافِـهِ العيش والـطعام، وفـاخر الفـرش والثيـاب، كـما صـوَّرَ الجـوارى الأجنبيـات الـلائى غنمهن الـعـرب فى الحـروب»[2].

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٩.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣.

وأشار إلى تيار قوى ظهر فى الشعر الأموى هو تيار الشعر الذى يصور الغربة والحنين إلى الوطن، وخاصة عند الشعراء الذين «فارقوا أوطانهم، وفارقوا عشائرهم، وفارقوا أهليهم وأبناءهم، وخرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله»[1].

وقد رصد الدكتور شوقى ضيف - من خلال منهج علمى دقيق - عدة ظواهر حدثت فى العصر الأموى فى بيئات الشعر المختلفة، ففى بيئة العراق لاحظ أن الشعر العربى خاض فى موضوعين كبيرين هما الخصومة السياسية التى اشتعلت بين الخوارج والشيعة، وبين الأمويين، والخصومة القبلية التى كانت بين العدنانيين والقحطانيين. كما لاحظ ظهور الغزل العذرى فى نجد وبوادى الحجاز، وقرر الدكتور شوقى أن «الحجاز اختصت بنوع من الشعر الغنائى الكامل الذى كان يصحب بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية».

كل هذه الظواهر والتطورات والاتجاهات درسها الدكتور ضيف فى الشعر الأموى، باعتبارها سمات جديدة أحدثها التحول الإسلامى الكبير فى الحياة العربية،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣١.

وانعكس على الشعر وبقية الفنون، ابتداء من صدر الإسلام وعصر بنى أمية. ونحن نلاحظ أن الطبعـة الأولى من كتاب «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» قد اتسمت بالحرارة والحماسة فى عرض قضايا التطور، حتى كانت فى بعض الأحيان توحى بأن الدكتور شوقى ضيف ينكر أن يكون الشعر الأموى له أية صلة بالشعر الجاهلى، مع أن هذا لم يطف بذهن الدكتور ضيف.

وقد أثار الكتاب فى طبعته الأولى كثيرًا من النقاش والجدل حول النتائج التى توصل إليها الباحث الجليل، مما جعله يعقب فى مقدمة الطبعة الثانية على بعض تلك الأصداء ويقرر أنه لم يقصد إلا دراسة جانب التطور والتجديد فى الشعر الأموى، ولم ينكر أى صلة بين هذا الشعر وبين الشعر الجاهلى، وأكد هذا المعنى فى بداية مقدمته بقوله: «ظن بعض من قرءوا هذا الكتاب فى طبعته الأولى أننى أنكر به الصلة بين الشعر الأموى والشعر الجاهلى، وأزعم أنها كانت منبتة منقطعة، ولست أدرى من أين جاءهم هذا الظن، وأنا لا أنكر هذه الصلة ولا أدفعها عن الشعر فى العصر الأموى، بل أنا لا أنكرها ولا أدفعها عن الشعر العربى فى جميع عصوره التالية، فقد ظلت الصلة قائمة متينة

بين عصوره وأقاليمه المختلفة، وبين الجاهلية وحياة العرب البدوية القديمة، فهى تفرض نفسها على الشعر والشعراء، لا من حيث الصنيع والأخيلة والصور فحسب، بل أيضا من حيث الموضوعات والأغراض وذكر الأطلال والرسوم، ووصف الإبل وحيوانات الصحراء ومسالكها ومنازلها»[1].

وأعترف أننى أختلف اختلافًا عميقًا مع أستاذنا الدكتور شوقى ضيف فى كثير من النتائج التى توصل إليها فى كتابه هذا، لإيمانى الأكيد بفكرة كبيرة كررتها مرارًا فى مناسبات عدة، وأتمنى أن أتفرغ لها وأدرسها بصورة مفصلة، وهى أن التقاليد الجمالية الجديدة التى فجرها الإسلام، لم تظهر فى الأعمال الفنية إلا فى العصر العباسى، لأن الحساسية الفنية والجمالية تحتاج إلى وقت طويل حتى تختمر وتستقر وتنفذ إلى أغوار النفس العربية، ويحتضنها جيل جديد يتمثلها فكرًا وفنًا، وهى لهذا تختلف عن التحولات الحضارية والفكرية والاجتماعية الأخرى التى قد تظهر بعد بروز الحدث على مسرح الحياة مباشرة، أو بعد وقت قصير.

ومن هنا أختلف مع الدكتور ضيف فى أن الشعر الأموى

---

(١) المصدر السابق.

تطور تطورًا كبيرًا يختلف عنه فى العصر الجاهلى، لمجرد أنه تناول بعض الأحداث السياسية أو تناول صراع الفرق، أو القبائل، أو صور الحب النقى الصافى، لأن معدن الشعر الأموى الذى صور كل هذه الأشياء لا يختلف عن معدن الشعر الجاهلى، فالتقاليد الجمالية واحدة، والحساسية الفنية واحدة.

ولم تختلف هذه الحساسية إلا فى العصر العباسى، قد نستثنى بعض الروافد الصغيرة من التجديد، التى لا تشكل ظاهرة أو انقلابًا، ولا تنفى هذه القاعدة، وهى على كل حال روافد كانت تظهر فى العصر الجاهلى. ولم تؤثر فى الحساسية الفنية السائدة، ولا فى التقاليد الجمالية الغالبة. وإذا كنت أختلف مع الدكتور شوقى ضيف من هذه الناحية، فإننى أتفق معه فى نفيه أن يكون للموالى هذا الحجم الكبير من التأثير فى الشعر فى العصر العباسى.

على أية حال لا نستطيع أن نتجاهل هذه النظرات الجديدة فى الدرس الأدبى التى ظل الدكتور شوقى ضيف يرفد بها الدرس الأدبى فى مختلف مراحل حياته.

ولعل كتابه الذى صدر فى عام ١٩٧٧، عن «الشعر

وطوابعه الشعبية على مر العصور»، يؤكد أن الرجل ظل طوال حياته مشحوذ الذوق والفكر والوجدان، يقدم الأفكار الجديدة للدرس الأدبى، ففى هذا الكتاب أكد من خلال الدراسةالتطبيقية، أن الشعر العربى كان يصور حياة الشعب العربى فى كل البيئات وعلى امتداد الحقب والأزمان. ونفى أن يكون شعراء العربية كانوا بمعزل عن شعوبهم فقد كانوا يتغنون بأشعارهم لكل الطبقات.

شوقى ضيف والدرس اللغوى

لا تزال هناك جوانب - لم نتعرض لها بالدرس - من شخصية الدكتور شوقى ضيف العلمية من أهمها جانبان: جانب الدرس اللغوى،وجانب الدراسات الإسلامية.

وسأتناول - فى هذه المرة - جانب الدرس اللغوى.

وقد راد الدكتور شوقى ضيف البحوث والدراسات اللغوية، منذ وقت مبكر من حياته العلمية الموفورة - فقد عثر على طرفة جديدة فى النحو لعالم أندلسى، هو ابن مضاء القرطبى، قاضى القضاة فى دولة الموحدين - هو (كتاب الرد على النحاة).

هذا الكتاب كان ثورة على نظرية العامل المستقرة فى النحو العربى، فاتخذه الدكتور شوقى ضيف مدخلا لثورته فى مجال الدراسات اللغوية وحققه، وأصدره فى عام ١٩٤٧، وكتب له مقدمة سماها مدخلا. تبلغ صفحاتها مقدار حجم كتاب ابن مضاء، بين فيها عصر المؤلف وحياته، ووقف عند

آرائه فى الكتاب فعرف بها تعريفًا دقيقًا.. ثم انتقل بعد ذلك إلى تحديد آرائه، وبيان حاجة النحو العربى إلى ثورة جديدة كثورة ابن مضاء، وقد وضع بذور هذه الثورة فى هذا المدخل، وبيَّنَ كما يقول فى مقدمته «حاجة النحو العربى إلى تصنيف جديد، يرفع عن الناس ما يفدحهم ويعضلهم فى تعلمه، ولم ألبث أن رسمت خطة هذا التصنيف مستهديًا بآراء ابن مضاء وأفكاره»[1].

على أن هذه البذور التى بثها الدكتور شوقى فى المدخل الموسع الذى قدم به كتاب الرد على النحاة ، لم تلبث أن ازدهرت ونمت فى كتب الدكتور ضيف التى جاءت بعد ذلك، وفى بحوثه ومشروعاته التى تقدم بها - فيما بعد - إلى مجمع اللغة العربية، فى محاولات مستمرة لإصلاح وتيسير النحو العربى. ويمثل كتاب «المدارس النحوية» الذى أصدره الدكتور شوقى ضيف فى عام ١٩٦٨ - الأساس النظرى لفلسفته فى إصلاح الدرس اللغوى. فقد استطاع أن يحدد كثيرًا من آرائه وأفكاره، وهو يحدد آراء أعلام المدارس النحوية، ويناقش أفكارهم وتصوراتهم.

(١) ابن مضاء القرطبى: كتاب الرد على النحاة (نشر وتحقيق الدكتور شوقى ضيف - الطبعة الأولى: دار الفكر العربى ١٩٤٧).

على أن هذا الكتاب فى حد ذاته يعتبر ريادة فى هذا المجال، فلم يسبقه كما يقول مؤلفه كتاب جامع تناول المدارس النحوية ورسم جهود أعلامها كما فعل فى هذا الكتاب، الذى تحدث عن المدارس النحوية من بصرية وكوفية وبغدادية وأندلسية ومصرية.

ويحدثنا الدكتور شوقى ضيف فى مقدمة هذا الكتاب أنه «بدأ بالمدرسة البصرية، لأنها هى التى وضعت أصول نحونا وقواعده، ومكنت له من هذه الحياة المتصلة التى لا يزال يحياها إلى اليوم»[1]. وأعترف أننى ظللت أيامًا طوالا أتجول فى كتاب الدكتور شوقى ضيف عن المدارس النحوية. فى متعة خصبة، وأتعرف على معالم هذه المدارس وأعلامها.

ولا أدرى هل أمضى فى استعراض هذين الكتابين اللذين يمثلان ريادة الدكتور شوقى ضيف للدرس اللغوى، أو أن ذلك يشق على القراء، حيث أننا مضطرون إلى أن نتناول مباحث دقيقة التخصص فى النحو والصرف؟

على أية حال سأستعرض بعض الجوانب العامة من

---

(١) الدكتور شوقى ضيف: المدارس النحوية. (الطبعة الثالثة – دار المعارف ١٩٧٦).

هذين الكتابين: أما الكتاب الأول فهو «كتاب الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي، الذي صدر في عام ١٩٤٧ بتحقيق الدكتور شوقي ضيف.

وقد قلت إن الدكتور ضيف قد مهد للكتاب بمدخل يناهز حجم كتاب ابن مضاء، وهذا المدخل وحده يكاد يكون كتابًا مستقلا للدكتور شوقي ضيف، يوضح رأيه في الدرس اللغوي، وبصفة خاصة طبيعة التأليف في النحو العربي، وما يجب أن يكون عليه.

ويبدو أن الشاب شوقي ضيف في مطلع حياته العلمية، كانت له آراء جريئة في إعادة تصنيف النحو العربي في مطالع الأربعينات من هذا القرن، رأى أن يرود بها مجال الدراسات اللغوية، ولكنه بسبب ما أحجم عن مواجهة الساحة الثقافية بهذه الآراء الجريئة، حتى عثر على مخطوطة لكتاب الرد على النحاة، فحققها وقدم لها، واتخذ من كتاب ابن مضاء وسيلة لبث أفكاره هو.

يتجلى ذلك في تعريفه بالكتاب وإبرازه جوانب معينة والتعليق عليها بالموافقة والتأييد. وربطه بين ثورة علماء المغرب على المشرق وعلومه في مجال الفقه، وبين ثورة ابن مضاء

على النحو المشرقى، إن صح هذا التعبير، وربطه بين هذه الثورة وبين المذهب الظاهرى، وعلل ثورة ابن مضاء بإعجابه بالمذهب الظاهرى «فذهب يحاول تطبيقه على النحو، وقد بدأ فرفض نظرية العامل التى جعلت النحاة يكثرون من التقدير، وهو تقدير يؤدى إلى عدم التمسك بحرفية آى الذكر الحكيم، تلك الحرفية التى كان يعتد بها أصحاب مذهب الظاهر، وأيضًا فإنه اقترض منهم ما يذهبون إليه من نفى العلل والقياس فى الفقه، ونادى بتعميم ذلك فى النحو، حتى نتخلص من كل ما يعوق جريانه وانطلاقه فى العقول والأفهام»[1].

وابن مضاء - لكى نعرف أفكاره - يدعو إلى إلغاء نظرية العامل، ويعترض على تقدير العوامل المحذوفة، وهذه النظرية من أصول النحو العربى الراسخة، أجمع عليها معظم النحويين على امتداد العصور، فالجهر بهذا الرأى يعتبر ثورة فى عالم الدراسات اللغوية. ولقد كان ابن مضاء شجاعًا، وهو يقرر مجموعة من الأسس يراها صالحة لعلم النحو، ويعترض على بعض هذه الأصول الراسخة قديمًا -

(١) كتاب الرد على النحاة ص ٩.

إلى جانب اعتراضه على نظرية العامل - إلى إلغاء العلل الثوانى والثوالث، كما دعا إلى إلغاء القياس. ودعا إلى إلغاء كل ما لا يفيدنا فى النطق.

ولقدكان الدكتور شوقى ضيف شجاعًا أيضًا، عندما احتضن هذه الأفكار وأبرزها. وأحيانًا كان يعلق عليها مستحسنًا مؤيدًا.

فعندما يقول ابن مضاء رأيه فى إلغاء نظرية العامل فى مفتتح الفصل الأول من كتابه، يؤيده الدكتور شوقى ضيف. ويحسن أن ننقل بعض النصوص التى تدعم هذا القول:

يقول ابن مضاء «قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظى، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظى وبعامل معنوى، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم فى قولنا (ضربَ زيدٌ عَمْرًا) أن الرفع الذى فى زيد والنصب الذى فى عَمرو، إنما أحدثه ضَرَبَ... وذلك بين الفساد، وقد صرح بخلاف ذلك أبو الفتح بن جنى وغيره، قال أبو الفتح فى خصائصه - بعد كلام فى العوامل اللفظية والمعنوية - وأما

فى الحقيقة ومحصول الحديث، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم، إنما هو للمتكلم نفسه لا بشىء غيره»[1].

ويعلق الدكتور شوقى على هذا النص بقوله: «وتحمل هذه الفقرة فى طياتها غاية ابن مضاء من كتابه، فهو يريد أن يحذف من النحو كل ما لا نفتقر إليه، وقد بدأ بنظرية العامل، فرأى أنه يحسن أن ننقضها نقضًا. وما العامل، وما هذا الذى يدعيه النحاة، فى مثل (ضرب زيدٌ عَمْرًا) إذ يزعمون أن ضرب عملٍ الرفع فى زيد، والنصب فى عَمْرًا؟... وأن النحاة لَيُبالغون فى ذلك حتى نراهم يذهبون إلى أن علامات الإعراب آثار حقيقية للعوامل، ثم هم - على ما هو معروف - يطيلون بعد ذلك فى بيان شروط هذه العوامل، وبيان أنواعها، ومتى تحذف؟ ومتى تذكر - ومتى يتقدم المعمول على عامله؟ ومتى يتقدم على صاحبه؟ وأى العوامل يعتبر أصليًا؟ وأيها يعتبر فرعيًا، وأنهم يتورطون أثناء ذلك فى مشاكل كثيرة لا طائل تحتها ولا مبرر لها»[2].

ونحن نلاحظ أن الدكتور ضيف متعاطف بصورة كبيرة

---

(١) المصدر السابق ص ١٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٨ - ١٩.

مع ابن مضاء، مؤيد لكتابه على كثرة ما فيه من ثغرات، وعلى ما فيه من بعض الجموح.

ولقد ظل هذا التعاطف طوال الصفحات الكثيرة، يزداد ويتأكد حتى تحول الدكتور ضيف إلى مهاجمة النحويين متأثرًا بابن مضاء. ففي صفحة ٤١ من المدخل نراه يقول: «والحق أن الإنسان لا يقرأ الصحف الأولى من شرح السيرافي على كتاب سيبويه حتى يشك في قيمة كل ما وضعه النحاة من علل وأقيسة في نحوهم، فليس هناك حرف يدخل على الفعل، ولا حركة إلا ويعلل ذلك، وقد يدخله القياس»[١].

وفي صفحة أخرى يقول: «وما من ريب أن من يقرأ كتابًا مطولا في النحو، كشرح السيرافي على كتاب سيبويه، أو شرح أبي حيان على التسهيل، يحس أن النحاة أفسدوا النحو بكثرة ما وضعوا فيه من فروع وعلل وأصول وافية، ومسائل غير علمية»[٢].

وفي نهاية هذا المدخل نحس أن الدكتور ضيف لم يكن

---

(١) المصدر السابق ص ٤١.

(٢) المصدر السابق ص ٤٥.

مجرد محقق نص فى النحو، وإنما كان صاحب فكرة يريد أن يعرضها، فحاول أن يشرحها فى ضوء كتاب عالم قديم كابن مضاء، وليس هذا استنتاجًا، بل قال بصريح النص: «والإنسان لا يلم بهذه الآراء لابن مضاء، ويطيل النظر فى كتب النحو المطولة وغير المطولة، حتى يحس الحاجة إلى تصنيف النحو تصنيفًا جديدًا»[1].

وبعد هذا الكلام يقدم مشروعًا متكاملًا فى تصنيف النحو، معتمدًا على نظرات ابن مضاء فى إلغاء نظرية العامل، وإلغاء ما لا فائدة منه.

وقد ظل هذا المشروع ينمو فى نفس الدكتور شوقى ضيف أعوامًا طوالًا حتى نَقَّحَهُ وأنضجه وأكمله، وقدمه لمجمع اللغة العربية.

أما الكتاب الثانى وهو (المدارس النحوية) والذى صدرت طبعته الأولى فى عام ١٩٧٦، فقد كان حصاد تجربة دراسية قام بها فى عام ١٩٦٥، حينما دعته الجامعة الأردنية ليحاضر قسم اللغة العربية بها فى تاريخ المدارس النحوية.

وكانت أفكار الدكتور شوقى ضيف - فى مجال الدرس

(١) المصدر السابق.

اللغوى - قد اكتملت وزادت نضجًا، فتناول فى هذا الكتاب الكبير «المدارس النحوية» ولم يكتف بالتأريخ لها، والتعريف بأعلامها. بل ناقش أفكار هذه المدارس فى مجال النحو، بينها وفندها، وصحح كثيرًا من الأفكار السائدة حول هؤلاء الرجال.

عود على بدء

وهنا لابد لنا من وقفة متأملة نقطع بها سياق هذا الحديث، الذى خصصناه منذ شهور لدراسة أعمال رائد من أكبر رواد الدراسة الأدبية، وهو الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، لنتناول عملاً جديدًا من أعماله الرائدة، صدر فى يونية ١٩٨٠. والعمل الجديد هو المجلد الخامس من سلسلة «تاريخ الأدب العربى». هذا التاريخ الباهر الذى توفر على إنجازه منذ أعوام طوال، فى صبر الزهاد، وتأمل العلماء، ومنهج الباحثين الأدباء واستقصاء المفكرين.

والكتاب مجلد ضخم بلغ عدد صفحاته ٦٨٠ صفحة، بعنوان «عصر الدول والإمارات». ويتناول تاريخ الأدب العربى فى الجزيرة العربية والعراق وإيران، فى فترة تمتدُّ من عام ٣٣٤ للهجرة حتى العصر الحديث.

أى أن الدكتور شوقى ضيف أنهى الحديث عن العصر العباسى عند هذا التاريخ ٣٣٤ هـ. وكان معظم مؤرخى الأدب العربى يمتد بالعصر العباسى، عند التأريخ للأدب -

إلى عام ٦٥٦ هـ، وهو التاريخ الذى استولى فيه التتار على بغداد عاصمة الخلافة فى أيام بنى العباس، فقوضوا حضارتهم الزاهرة، وعاثوا فسادًا فى مدينة المسلمين، أى أنهم كانوا يدخلون ثلاثة قرون فى العصر العباسى، يسمونها بأسماء مختلفة، فهى من هذا التاريخ حتى استيلاء بنى عثمان على الخلافة، بعد أن أخضعوا لحكمهم مصر والشام والعراق، «العصر المغولى» وهى تسمى أثناء الحكم العثمانى «العصر العثمانى».

والدكتور ضيف يرى أن هذا التصور مخطئ «لأن سلطان الخلافة العباسية تتقلص ظلاله منذ سنة ٣٣٤ هـ، بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه فى كثير من الأمر سوى بغداد، فقد كانت إيران بيد بنى بويه، ونفس العراق أظله سلطانهم، وكانت البحرين واليمامة بيد القرامطة، وكانت الموصل وحلب بيد الحمدانيين. ومصر والشام بيد الإخشيد، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر»[1].

---

(١) الدكتور شوقى ضيف: تاريخ الأدب العربى جـ ٥ عصر الدول والإمارات ص ٥ (دار المعارف ١٩٨٠).

ولهذا رأى الدكتور ضيف أن يدمج العصر المغولى فى عصر الدول والإمارات، وأن يدمج فيه العصر العثمانى.

والجديد فى الأمر ليس فى مجرد التسميات، وإطلاق ألفاظ مختلفة على العصور، فهذا عمل شكلى يتصل بمنهج البحث أكثر مما يتصل بجوهر الدرس الأدبى، وإنما الجديد حقًا أن الدكتور شوقى ضيف، توفر على هذه الفترة الزمنية الممتدة من عام (٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م) حتى مشارف العصر الحديث نحو (١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م) فى مطلع القرن التاسع عشر، وهى مساحة زمنية تناهز تسعمائة عام، تحولت بفعل الدكتور شوقى إلى لوحة مشرقة واضحة الخطوط بارزة القسمات.

وقد كانت هذه الفترة غير واضحة المعالم فى مجال الدرس الأدبى، ولم تأخذ نصيبها من الدرس والتمحيص مثل بقية فترات التاريخ الأدبى وعصوره. وبصدور هذا المجلد الخامس أصبحنا نملك تاريخًا للأدب العربى متصل الحلقات على أرفع مستوى علمى، وبطريقة موضوعية تجمع بين التاريخ والتقويم الفنى والجمالى والاستيعاب الكامل للظواهر الفنية وتحديد معالمها، وتبين تطورها، وتحديد اتجاهاتها.

والجديد فى هذا المجلد أنه يتناول أدب الجزيرة العربية والعراق وإيران فى تلك الفترة الزمنية، وهى فترة غامضة ومجهولة للدارسين فى هذه الأقاليم قد نستثنى العراق، لأنه حظى بقليل من الدرس الأدبى عبر تلك الأيام.

وينوى الدكتور شوقى ضيف أن يفرد المجلد السادس للتأريخ لمصر والشام، فى هذه الفترة، والمجلد السابع للأندلس والمغرب، كما يحدثنا فى مقدمة المجلد الخامس، وبذلك تكون هذه الفترة قد حظيت بثلاثة مجلدات علمية، خرجت بها من الظلام إلى النور، ومن الخفاء إلى الوضوح.

على أن لهذه الفترة طبيعة تاريخية خاصة، ففيها ازداد نفوذ الفرق الإسلامية والطوائف، وازداد تلاطم الاتجاهات الفكرية، وازدهرت الفلسفة وعلوم الأوائل، ونضجت الاتجاهات الصوفية، وكثر شعر الوجدان وشعر الزهد، وظهر أيضًا شعر اللهو والمجون.

وكثرت المناظرات والمحاورات، وتناول النثر صنوفًا من الفلسفة والحكمة والوعظ. وظهرت به القصص والرسائل الشخصية والديوانية.

وفى الجزيرة العربية وإيران والعراق، ظهر لون من

الشعر العقائدى، أشاعَهُ هؤلاء الذين كانوا ينتمون من الشعراء إلى الدعوات الإسماعيلية والزيدية والإمامية والكيسانية والوهابية والخوارج الإباضية.

وفى هذا العصر تمكنت بعض الفرق المتطرفة والخارجة على التيار العام فى الإسلام من إنشاء بعض الدول لها، فقد سيطر القرامطة على البحرين، وسيطر الزيديون على اليمن بعض الفترات، وسيطر الشيعة الإماميون على إيران، وجعلوا التعاليم الإمامية، المذهب الرسمى لإيران.

ولعل احتدام هذه المذاهب والتيارات، وصراع الفرق واستيلائها على بعض الأقاليم الإسلامية، هو الذى جعل لهذه الفترة مذاقًا خاصًا يختلف عن بقية الفترات، وأعتقد أن استقلال بعض هذه الطوائف والفرق المذهبية ببعض الأقاليم قد صبغ فكر هذه الفترة وأدبها وثقافتها بلون أفكار هذه الفرق، وأشاع تعاليمها ودقائق مذاهبها، ولعل هذا هو السبب فيما أصاب تلك الفترة من نسيان وإعراض من المؤرخين والدارسين، فلاشك أن التيار الإسلامى العام بمذاهبه واتجاهاته، كان ضد هذه الأفكار والاتجاهات، ولذلك ضاعت أصول هذه الفرق الفكرية ومصادر أدبها وفكرها.

ولهذا أشعر بالمجهود الضخم الذى بذله الدكتور شوقى ضيف ليستنقذ أدب هذه الفترة الطويلة المجهولة، من براثن النسيان، ويقدمها للدارسين فى هذا الثوب المشرق، وبهذا التناول العلمى الخصب.

وهذا المجلد الخامس يقدم صورة للمجتمع السياسى فى أقاليم ودول الحجاز ونجد واليمن، وحضر موت وظفار، وعمان، والبحرين.

ويتحدث عن حركة التشيع فى بعض تلك الأجزاء، ويلقى ضوءًا على الخوارج الإباضية، والدعوة الوهابية السلفية، ويرصد الظواهر التى كانت تنمو فى هذين الإطارين السياسى والاجتماعى، ففى حديثه عن الثقافة تناول الحركة العلمية، وعلوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية. وعلوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وعلوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام.

كما درس الشعر وتتبع تطوره، وأرخ لأعلامه، وبخاصة شعراء الدعوة الإسلامية وشعراء الدعوة الزيدية، وشعراء الخوارج.

كما تحدث عن شعر الزهد والتصوف والمدائح النبوية،

وتحدث عن النثر وما حدث فيه من تنوع الكتابة والرسائل الديوانية والشخصية، والمواعظ والخطب الدينية، والمحاورات، والرسائل الفكاهية، والمقامات.

وبهذا المنهج نفسه، وعلى هذا النسق تحدث عن الأدب فى العراق وإيران، ولا نستطيع أن نلخص الكتاب كله على هذا النحو، فى هذه الصفحات، فهذا عمل يخرج عن حدود الإمكان.

ويكفى أن نقرر أن الدكتور شوقى ضيف احتشد لهذه الدراسة احتشادًا كبيرًا، وشحذ لها كل ملكاته الفكرية والأدبية المدربة المصقولة، فجاءت هذه الدراسة الكبيرة المترامية الأطراف، المتعددة الصفحات، وقد جمعت بين الفن وخصوبته ونضارته وبين العلم ودقته وفحصه وصرامته. وهى من أجل هذا تلهم القلب وتحرك العقل، وتثير طاقات الإبداع فى القراء، وهذه سمة الدراسات الجيدة التى تبقى وتؤثر.

والشيء الذى يجب أن نعترف به بعد صدور هذا المجلد الضخم، أن الدكتور ضيف قد أدى واجبًا تقاعس عن أدائه معظم النقاد والدارسين فى العصر الحديث، هذه واحدة،

وأخرى أن الدكتور ضيف لايزال يحتفظ بشبابه العقلى، وقدرته على البحث والاستيعاب، والعرض الجذاب، والتحليل والفحص والتعليل، والوصول إلى كثير من الحقائق العلمية، والتصدى لدحض كثير من الأفكار والآراء غير العلمية التى تسللت إلى دراساتنا عن طريق هؤلاء الذين لا يفهمون من معنى النقد والدراسة الأدبية غير الجمع والحشد، وتسويد آلاف الصفحات دون فهم أو معرفة!!

ولهذا أحسست وأنا أقرأ هذا المجلد الجديد بالمتعة العقلية والغبطة الفكرية والجذل الروحى، وهى أحاسيس أشعر بها حيال الكتب التى تغيرنى وتصقل ذوقى وتشحذ عقلى وتخصب وجدانى.

على أن أكبر ميزة لهذا الكتاب الجديد أنه قدم لنا كثيراً من الشعراء والكتاب والمفكرين، فى إطار بيئتهم الزمانية والمكانية، وفى سياق المرحلة الحضارية التى كانوا يعيشون فى ظلالها، فوضحت إنجازاتهم، وتحددت قيمتهم، وتجلى دورهم المؤثر الكبير. كما أعطانا المفاتيح التى نستطيع بها أن نلج عوالم هؤلاء، وكانت مغرقة فى الإبهام، موغلة فى الغموض،

كما ألقى الأضواء على عقائد هؤلاء الشعراء والأدباء والكتاب.

ونستطيع أن نذكر من أسماء هؤلاء الشعراء والكتاب عمارة اليمنى، والحضرمى، والصنعانى، وعبد الرحيم البرعى، وعبدالرحمن العيدروس، من الجزيرة العربية. وصفى الدين الحلى، والشريف الرضى، ومهيار، وابن الشبل البغدادى، وابن الهبارية، والأحنف العكبرى، من العراق. وعلى ابن عبدالعزيز الجرجانى، وأبو بكر الخوارزمى، والأبيوردى، والباخرزى، والقشيرى، ويحيى السهروردى، وأبو الفتح البستى، ورشيد الدين الوطواط، وابن العميد، وبديع الزمان، من إيران.

هؤلاء وغيرهم يمثلون الكتاب والشعراء فى أقاليمهم، بعضهم كان مشهورًا والبعض الآخر كان لايزال فى مجاهل النسيان، تحولوا بعد صدور هذا الكتاب إلى أعلام معروفين لنا تمامًا، من خلال أفكارهم وإبداعهم الفنى والأدبى، وإنجازاتهم الفكرية والحضارية، وسيظلون كذلك إلى ماشاء الله، مادام هذا الكتاب يطبع ويتردد بين الناس.

شوقى ضيف والدرس اللغوى

ونعود إلى الحديث عن شوقى ضيف والدرس اللغوى، بعد أن قطعناه فى العدد الماضى لنتوقف لحظات أمام كتابه الجديد، وهو المجلد الخامس من الموسوعة الرائدة «تاريخ الأدب العربى».

وأرجو أن أشير فى بداية هذا الحديث، إلى أننى لا أستقصى جوانب التفكير النقدى عند أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، ولا أحيط بكل جهوده فى مجال الدراسات الأدبية. فهذا يحتاج إلى مجلدين كبيرين يتفرغ لهما باحث مدرب عميق النظرة، مرتب الفكر، وأتمنى أن يقيض الله لهذا العمل تلميذاً من تلاميذه البررة النجباء. وأنا أرشح لهذا العمل صديقى الدكتور عبد الحكيم راضى.

أما عملى فى هذه الفصول المتتابعة، فهو مجرد إثارة رءوس موضوعات وتفجير بعض قضايا البحث، وتناول بعض العناصر التى تمثل ريادة حقيقية للدكتور ضيف.

لهذا عدت مرة أخرى لاستكمال قضية الدرس اللغوى عند هذا العالم الرائد.

فهذا البحث يظل ناقصًا ما لم نشر إلى اهتمام الدكتور ضيف بإعادة بحث نحونا العربى، فى محاولة لتيسيره وجعله جزءًا أساسيًّا من نسيج حياتنا التعليمية والثقافية.

وقد تبينا من الفصول السابقة، اهتمام الدكتور شوقى المبكر بقضية إصلاح النحو العربى، عندما حقق كتاب ابن مضاء فى الرد على النحاة، وقدم له بتمهيد طويل يكاد يكون كتابًا فى هذا الموضوع، وكان ذلك فى أواخر الأربعينات من هذا القرن.

هذه الأفكار ظلت تختمر وتنمو، ومع الممارسة العملية فى التدريس الجامعى والتأليف المستمر فى جوانب تتصل بالأدب والنقد واللغة، تحولت عند الدكتور ضيف إلى ما يشبه المنهج العلمى فى إصلاح النحو، ولقد قاده هذا المنهج إلى تقديم مشروع لمجمع اللغة العربية يدور حول إعادة النظر فى نحونا العربى، وكتب بحثًا بعنوان تيسير النحو، ألقى ملخصه فى الجلسة السادسة من مؤتمر المجمع المنعقد فى (١٩٧٧/٢/٢٨) ونشر البحث كاملا بعنوان

«تيسير النحو» فى مجلة المجمع، وأتيح لى أن أقرأ (فصلة) من هذا البحث الدقيق العميق.

وهذا البحث يشتمل على تشخيص للمشكلة، أو تحديد للقضية، مع حديث تفصيلى عن نشأة النحو، والجهود الجادة التى بذلت للتأليف فيه، ودراسة تاريخية عن المحاولات التى قام بها الرواد فى القديم والحديث، حول هذا الموضوع.

ثم ناقش التجارب التى وضعت لإصلاح النحو والمشروعات المتعددة التى خصصت لهذا الإصلاح.

ثم خرج فى النهاية بمشروع متكامل لتيسير النحو، التزم فيه ثلاثة أسس هامة، رآها صالحة لتحديد طبيعة هذا المشروع.

الأساس الأول: إعادة تنسيق أبواب النحو، بحيث لا تصيب أذهان الناشئة بالتشتت.

والأساس الثانى: إلغاء الإعراب التقديرى والمحلى.

والأساس الثالث: ألا نعرب الكلمة مادام إعرابها لا يفيد شيئا فى صحة النطق.

ويحدثنا الدكتور ضيف فى مشروعه «أن هذه الأسس الثلاثة إذا أحسن استخدامها أمكن بها أن نيسر النحو،

دون أن يحدث أى تحوير أو تغيير فى مصطلحاته الموروثة، مصطلحات المبتدأ والخبر، والفاعل ونائبه، والمفاعيل، والحال، والتمييز، والتوابع، والمضاف. وأضيف الآن إلى هذه الأسس، أساسًا رابعًا، هو ضوابط سديدة أو دقيقة للأبواب، تتلاءم ورسمها رسمًا متميزًا، بحيث تتبين الناشئة أوضاعها ووظائفها فى التعبير تبينًا تامًّا»[1].

ومن خلال هذه الأسس الأربعة وعلى ضوئها ناقش الدكتور شوقى ضيف أبواب النحو العربى وتفصيلاته، كما ورثناها فى كتبه الراسخة المستقرة فى تراثنا العربى، وبيّن كيف ننسق أبواب النحو وندخل بعض التفصيلات فى بعض الكليات، أو نمزج بين بعض الأبواب والموضوعات، كما بين كيف نستغنى عن الإعراب التقديرى والمحلى، وكيف نستغنى عن إعراب الكلمة مادام الإعراب لا يفيد فى صحة النطق.

وكنت أتمنى أن أفصل القول فى هذا المشروع لولا أننى أرى أنه بحث شديد التخصص دقيق النظر.

ومع ذلك فلابد أن نتوقف عند بعض الأشياء التى تحدد

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٢٩٧ - (نقلا عن فصلة خاصة من المجلة).

ملامح مشروع تيسير النحو، ففى مجال تنسيق أبواب النحو، يرى الدكتور ضيف أن ننقل درس التوابع من باب الجمل لتدرس فى أحكام الاسم المفرد وتقسيماته، ويعلل الدكتور ضيف ذلك بقوله: «لتتبين الناشئة أن المتبوع لا يكون مع توابعه جملاً مفيدة، وبذلك ينمحى نهائيًا من نفوسها الخلط بين النعت مثلاً والخبر، أو بينه وبين الحال»[1].

ويرى أننا يجب أن نحذف ستة أبواب تتصل بباب المبتدأ والخبر وتتفرع عنه، وهى أبواب «كان وأخواتها، وكاد وأخواتها، وما ولا ولات العاملة عمل ليس، وباب إن وأخواتها، وباب لا النافية للجنس، وباب ظن وأخواتها، مما ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، وباب اعلم وأخواتها، ماعدا إن وأخواتها . لسبب واضح، هو أن المبتدأ بعدها ينصب ويسمى اسمها»[2].

وهكذا يمضى الدكتور ضيف على هذا النحو فى مناقشة أبواب النحو وكيف يحذف بعضها ويضم البعض الآخر إلى أبواب تلائمه، مستعيناً بثقافته الواسعة فى النحو والصرف،

---

(١) المصدر السابق والصفحة. (٢) المصدر السابق ص ٢٩٨.

معتمدًا على بعض آراء النحاة التى تدعم فكـرته فى حـذف بعض الأبواب، وضم بعض الأبواب إلى أبواب أخرى.

وبذلك تشعر أنك أمام نحوىّ متمرس، يضيف كما أضافوا، ويخترع كما اخترعوا، وعندما يقترح حذف ثمانية عشر بابًا من أبواب النحو، تشعر أنك أمام مفكر جاد، يريد أن يخفف عن الناشئة ويرفع عنهم المشاق، وعندما يضع تعريفًا لباب من أبواب النحو تحس دقة التعريف ووضوحه، فتأمل تعريفه للمفعول المطلق: «كل اسم منصوب يصف الفعل أو يتعلق به ضربًا من التعلق، سواء كان مصدرًا أو غير مصدر».

ولاشك أن هذا التعريف يختلف عن تعريف ابن هشام الذى يقول: «اسم يؤكد عامله أو يبين نوعه أو عدده، وليس خبرًا ولا حالاً»[(١)].

ويلخص لنا الدكتور ضيف فلسفة تيسيره للنحو الذى قدمه لمجمع اللغة العربية بقوله: «إن هذا التيسير المقترح للنحو العربى يعفى الناشئة من شطر كبير من أبوابه، إذ

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٤.

ذابت فى أبوابه الأساسية، كما يعفيهم من التقدير فى إعراب المفردات والجمل، وفى متعلق الظرف والجار والمجرور، وفى نصب المضارع بعد إن المصدرية المحذوفة، ومن تصور أن علامات الإعراب الفرعية نائبة عن علامات أصلية، ويعفيهم من الإعراب المعقد لبعض أدوات الشرط، ومن إعراب هذه الأدوات جملة، إعراب كم الاستفهامية والخبرية، ولاسيما، وأن المخففة من الثقيلة.

وفى الوقت نفسه يضبط لهم ضبطًا دقيقًا أبواب النحو المليئة بالصعاب، كأبواب المفعول المطلق، والمفعول معه، والحال، وأصبحت صيغ الاستثناء والتمييز محددة أوفى تحديد... وحذف من الصرف الإعلال، وخفف الإبدال والتصغير والنسب، وعنى بأربعة أبواب هى: جداول الفعل مع الضمائر، وأعمال المصادر، والمشتقات، وحروف الجر الزائدة، والحذف والتقديم، حتى تستقر صياغات هذه الأبواب فى نفوس الناشئة»[1].

ويقترح الدكتور شوقى ضيف إلى جانب هذه التيسيرات أن نعنى «فى دروس المطالعة للناشئة ببيان مخارج

(١) المصدر السابق ص ٣٠٧.

الحروف، حتى ينطقوا كلمات العربية نطقًا سليمًا، وكذلك العناية بتعريفهم بمواضع أَلِفَاتِ الوصل، وألفات القطع، وبالوقف، أو قطع النطق عند أواخر الكلمات»[1].

ثم قدم الدكتور ضيف فى نهاية مشروعه منهجًا لكتاب النحو الميسر الذى يقترحه، ثم قال «وواضح أن هذه الصورة المقترحة للنحو ليست ثورة على قواعده المأثورة التى وضعها له عباقرته الأفذاذ، وإنما هى محاولة جادة لتيسيره حتى يصبح أداة تعليمية بسيطة للناشئة، بحيث تستطيع أن تتمثل قواعده، وتسيغها دون إرهاق أو عناء شاق»[2].



ونحن نلاحظ أن أستاذنا الدكتور شوقى ضيف كان يراعى المشقة التى يكابدها التلاميذ فى تحصيل النحو والصرف، وكانت هذه ضرورة أثرت فى صياغة هذا المشروع الذى قدمه لمجمع اللغة العربية لتيسير النحو. وفكرة مراعاة مستوى التلاميذ وتيسير مصطلحات العلوم

---

(١) المصدر السابق والصفحة.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٩.

لهم، عمل مشروع وواجب، ولكن يمكن أن يقوم به إخواننا من مدرسى اللغة العربية وموجهى التعليم فى وزارة التعليم، ولكن الدكتور ضيف كان قادرًا على التجديد فى مجال دراسة النحو والصرف باعتباره عالمًا لغويًّا ونحويًّا، له فلسفة نظرية فى التجديد.

على أن فكرة تيسير النحو فى حد ذاتها فكرة خَطِرة، فما يراه الدكتور ضيف يسيرًا، يراه غيره معقدًا وشاقًا، وهكذا نظل نترخص فى التيسير حتى نُفسِدَ العلوم بهذا المعيار الغامض.

وأنا لا أناقش مشروع الدكتور شوقى ضيف للتيسير، فليس هذا هو المجال الصالح لتلك المناقشة التفصيلية الدقيقة التخصص.

على أننى مفتون بكتب النحو القديمة، وبخاصة المطولات منها، وأعتقد أنها فى حاجة إلى دراسة جمالية، ففى الكثير من تفصيلاتها وتفريعاتها المنطقية والنظرية ما يصلح لأن يكون أساسًا فلسفيًّا لعلم جمال عربى.

شوقى ضيف والدراسات الإسلامية

هناك جانب هام من جوانب شخصية الدكتور شوقى ضيف العلمية، وهو جانب الدراسات الإسلامية، ولابد من التوقف عنده بعض الشيء ونحن نتناول إنجازه العلمي.

وارتباط الدكتور ضيف بالدراسات الإسلامية، ارتباط حميم، فهو ارتباط نشأة، وارتباط ثقافة، وارتباط درس متواصل.

فقد نشأ فى بيت علم ودين، وتصوف، وبدأت حياته العلمية - قبل أن يدرس فى الجامعة، فى الأزهر ودار العلوم.

ثم ظل ارتباطه عميقًا بتلك الدراسات، حتى وهو يدرس للتلاميذ فى الجامعة الأدب وتاريخه، فقد تحدث فى كثير من كتبه الأدبية والتاريخية عن مظاهر كثيرة من المظاهر الإسلامية كان لها تأثير عميق على الدراسات الأدبية، كما تناول أشعار المتصوفة فى كل العصور، وكان يهتم بالجوانب الإسلامية فى شعر الشعراء.

على أن الإنجاز الحقيقى الذى قدمه للدراسات

الإسلامية يتمثل فى المنهج الذى أصَّله ودرس من خلاله كثيرًا من الظواهر والقضايا الفكرية، ولقد أتيح له أن يعكف بضع سنين على القرآن العظيم والحديث النبوى قراءة وتذوقًا ودرسًا واستخلاصًا للعبرة والأفكار، وقد محَّص منهجه مع تلاميذه فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة، حيث ظل يدرس لهم من خلال هذا المنهج اتجاهات التفسير ومناهجه المختلفة.

ثم أتيح له بعد ذلك فى مرحلة من مراحل حياته العلمية أن ينشر فى جريدة الأهرام مجموعة من الدراسات دارت حول تفسير بعض السور القصار، ثم قام بتفسير سورة الرحمن، ثم ضم كل هذه الحصيلة فى كتاب باسم «سورة الرحمن وسور قصار» أصدرته دار المعارف فى مجلد كبير فى عام ١٩٧١.

وفى هذا الكتاب يتجلى منهج الدكتور ضيف، الذى أشرت إليه، والذى تكون له عبر حياته العلمية الموصولة المثمرة المباركة، وهو منهج علمى يعتمد على الفحص والتدقيق، والاستقراء والاستنباط، والموازنة والترجيح.
ولاشك فى أنه قد استفاد من مناهج البحث الحديثة، كما

استفاد من مناهج البحث عند آسلافنا، وخاصة هؤلاء الذين عكفوا على تدوين الحديث، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامى. فقد تلمح فى هذا المنهج عناصر من بعض تلك المناهج، وقد تصادفك فى هذا المنهج بعض نظرات علماء مصطلح الحديث، وبخاصة ذلك الاتجاه فى تمحيص النص وتوثيقه، ودراسة الرجال والرواة، واختبار صدقهم على ضوء منهج «الجَرح والتعديل»، وهذه تأثيرات مشروعة. ولكن يظل منهج الدكتور شوقى ضيف منهجًا جديدًا خاصًا به، كذلك المنهج الذى درس على ضوئه الأدب العربى واستخدمه فى النقد الأدبى، وهذا المنهج الجديد طبقه الدكتور ضيف فى كتابه «سورة الرحمن وسور قصار»، وهذا الكتاب يتناول تفسير سورة الرحمن، وسورة المُلك، وسورة التكوير، وسورة الأعلى، وسورة الشمس، وسورة العصر، وسورة الماعون، وسورة الإخلاص، وسورة الفَلق. وقد بدأ بمقدمة ثم بعرض ودراسة لفاتحة الكتاب.

ويمكن أن نعتبر هذا الكتاب نقدًا أدبيًا ، وتذوقًا جماليًا لمجموعة من النصوص البلاغية التى وصلت إلى الذروة فى الإفصاح والبيان.

ويمكن أن نعتبره رسالة فى الأخلاق، تعتمد على الأصل الأول من أصول الإسلام، وهو «الكتاب الكريم».

ويمكن أن نعتبره تفسيرًا حديثًا، ففيه كل خصائص التفسير الحديث. وقد تناول كما يقول الدكتور ضيف فى مقدمته «أصول العقيدة الإسلامية وبعض مبادئ الإسلام الخُلقية والاجتماعية».

ويمكن أن نعتبره كل هذه الأشياء جميعًا، فهو تذوق جمالى لنص أدبى يدور حول أصول العقيدة الإسلامية، التى أصَّلَتْ فى الحضارة الإنسانية قيم الأخلاق والسمو الإنسانى، وقيم العدل الاجتماعى.

على أن هذا المنهج الذى استخدمه الدكتور ضيف فى هذا الكتاب حماه من الوقوع فى مزالق كثيرة تعرض لها، ووقع فيها معظم الذين تعرضوا لتفسير القرآن العظيم.

وما أكثر المدارس التى نشأت فى ظلال الحضارة الإسلامية، وكان لها منهج فى تفسير القرآن، وما أكثر الخلافات التى وقعت بين هذه المدارس بحسب اتجاهها إلى العقيدة أو الشريعة، أو من خلال موقعها الفكرى والروحى.

فالشيعة لهم تفسيرات متعددة تعتمد على التأويل والرموز الصوفية كذلك.

والفرق الإسلامية وفلاسفة الإسلام ومفكروه، حاولوا أن يخضعوا القرآن لنظراتهم الفكرية، واتجاهاتهم المذهبية، ونزعاتهم الصوفية. وقد تجنب الدكتور ضيف بخبرته الأدبية، ونزعته العلمية، ومنهجه الجديد - كل هذه العيوب، لأنه اتجه أساسًا إلى النص القرآنى يلتمس من خلاله شرح العقيدة الإسلامية وتجلية قيمها الأخلاقية والاجتماعية.

وحدثنا الدكتور ضيف فى مقدمة هذا الكتاب، أنه بسط هذه الأصول وتلك القيم من خلال آيات الذكر الحكيم. ويقول: «كنت أتخذ من الآية نورًا يهدينى إلى مضمونها العام فى القرآن، وأحاول بقدر ما أستطيع عرضه ووصفه، سواء اتصل ذلك بعظمة الله وجلاله، ورحمته وآلائه فى الدنيا والآخرة، أو بالرسالة والرسل، أو بالملائكة والجن والشياطين، أو بماهية الحياة بعد الموت، والثواب والعقاب فى الآخرة، أو بالتهذيب الروحى والخلقى، أو بالعلاقات العمرانية، أو بتحرير الإنسان من الهوى والخرافات، وجملة الآثام، أو بدفعه إلى استغلال عقله، وكشف قوانين الكون

وأسراره، أو بإيقاظ وجدانه ومشاعره والسمو به إلى الكمال الإنسانى المأمول»[1].

وهذه فقرات تحدد بوضوح وقصد، الميادين التى دار حولها البحث فى هذا الكتاب، والقضايا التى تناولها من خلال تفسير هذه السور القرآنية. وهى طريقة متفردة ولكنها على أية حال تذكرنا بنظرات ابن تيمية وابن القيم من القدماء، كما تذكرنا بطريقة الإمام محمد عبده، والدكتور محمد عبدالله دراز، والأستاذ أحمد حسين.

ولكنها تختلف عن هؤلاء جميعًا، بهذا الوضوح البيانى، وهذا الاعتدال المنهجى، وهذا التأصيل النظرى للسنن الكونية والقيم الاجتماعية والأخلاقية التى دعا إليها القرآن الكريم.

ويرجع الفضل فى كل هذا لطبيعة المنهج العلمى الجديد الذى اختطه الدكتور ضيف لدراساته الإسلامية، كذلك طبيعته العلمية المواتية التى تدفعه إلى التقصى والبحث، والعكوف الطويل على مصادره ونصوصه التى يتناولها،

(١) الدكتور شوقى ضيف: سورة الرحمن وسور قصار ص ١١ (دار المعارف ١٩٧١).

وتذوق ما فيها من جمال، والنفوذ إلى ما فى باطنها، وما فيها من أسرار ومعارف، وهضمها، ثم الوصول بعد ذلك إلى الحقائق العلمية، وعرضها بطريقة تجمع بين الموضوعية والجاذبية الفنية.

ولعل الذى مكن الدكتور ضيف من الوصول إلى كل ما وصل إليه - إلى جانب علمه - تواضعه، فهذه السمة الأخلاقية حمته من الغرور والصلف اللذين يفسدان علم العلماء واجتهاداتهم، ولعل تلك السمة الأخلاقية الرفيعة هى التى تدفعه إلى الاعتراف بفضل العلماء الذين سبقوه فى الميدان الذى يكتب فيه، ويتناوله بالدرس والتحليل، ففى نهاية المقدمة التى كتبها لهذا الكتاب العلمى الممتاز كتب يقول: «وأعترف بأنى رجعت إلى كثير من كتب التفسير، كتفسير الطبرى، والنيسابورى، والزمخشرى، والفخر الرازى، والقرطبى، وابن كثير، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، والبيضاوى، وأبى حيان، والألوسى، وإسماعيل حقى، والشيخ محمد عبده.

وكل ما نهضت به فى هذه الصحف لا يعدو غَرْفَةً صغيرة بيدىَّ القاصرتين من ينبوع القرآن العظيم، الذى يغذى

برحيقه الصافى العقول، ويشفى النفوس»[1].

وهناك كتاب آخر ليس من تأليف الدكتور شوقى ضيف ولكن من تحقيقه. وهو كتاب «السبعة فى القراءات» لابن مجاهد، وهو كتاب يتصل بالدراسات القرآنية أيضًا، عكف الدكتور ضيف على تحقيقه فى حب وتبتل، وكتب له مقدمة طويلة حول موضوعه والتعريف بصاحبه.

وقد حدثنى الدكتور شوقى ضيف أن هذا الكتاب، أحب كتبه إليه، وأنه بذل فيه كل هذه الجهود تقربًا إلى الله... ثم قال لى فى صوت خاشع:

... أرجو أن يقبلنى الله فى رحابه لقاء ما بذلت فى هذا الكتاب!



وبعـــــد...

فأعتقد أننى بهذه الفصول الطوال التى أدرتها حول الدكتور شوقى ضيف وإنجازاته العلمية، والتى استغرقت

(١) المصدر السابق والصفحة.

عامًا كاملاً من أعوام الثقافة[1]، قد أديت بعض الواجب نحو هذا الرائد العظيم، وألقيت الأضواء على أهم اتجاهاته الأدبية والفكرية، ومنهجه فى الدرس الأدبى والنقدى والدراسات الإسلامية. وإن كنت أظن أن الأمر لايزال محتاجًا إلى فصل آخر يكون بمثابة الخاتمة، يذكر بأهم العناصر التى تناولتها فى هذه الفصول، ويقف عند جوانب أخرى متفرقة من حياة الدكتور ضيف العلمية، كاتجاهه إلى التأصيل النظرى فى النقد الأدبى، وكذلك منزعه فى النقد التطبيقى، وتناوله لبعض أجناس أدبية أخرى كدراسته لفن المقامة وغيرها من الفنون الأدبية.

(١) مجلة الثقافة القاهرية التى نشرت فيها هذه الفصول والتى كنت رئيسًا لتحريرها طوال عشرة أعوام.

خاتمـــة

وأحاول الآن أن أكتب الفصل الختامى لهذه الدراسات التى صحبت فيها أستاذنا الدكتور شوقى ضيف أكثر من عام، وحاولت فى خلالها أن أبرهن بالأدلة التفصيلية على ريادة الدكتور شوقى لأكثر من مجال.

قلت فى المقالة الأولى إنه:

* رائد فى النقد والدراسة الأدبية والدراسات اللغوية.
* رائد فى تأصيل مناهج جديدة للبحث العلمى.
* رائد فى الدراسات القرآنية والإسلامية.

وأعتقد أن هذه المقالات والفصول الطوال، قد أجابت بالأدلة التفصيلية والتأصيل النظرى، على هذه القضايا الثلاث.

وأشهد أننى بذلت ما وسعنى من الجهد واستفرغت كل طاقتى فى هذه الفصول، وأتمنى أن تلهم الشباب، وتحفز تلاميذ الدكتور شوقى ضيف على استكمال البحث والدرس حول هذا الرائد العظيم الذى قدم للمكتبة العربية كل هذه

الكتب الرائدة الممتازة، والذى قاد بحق اتجاهات التجديد فى نقدنا العربى الحديث منذ الثلث الثانى من القرن العشرين حتى الآن.

وكان لابد أن أركز فى دراستى لإنجازات هذا الرائد العلمية الكثيرة حول أهم الملامح الجديدة التى تشكل عالمه العلمى والفكرى.

* ولهذا وقفت طويلا عند إنجاز شوقى ضيف وتاريخ الأدب العربى.

* وتريثت عند تأصيله لمذاهب جديدة للأدب العربى.

* وأشرت إلى إنجازه فى مجال الدراسات اللغوية والإسلامية.

واستغرقتنى هذه الجوانب بصورة كبيرة، فلم ألتفت إلى جوانب هامة أخرى، أشعر الآن، أنها كانت فى حاجة إلى درس مفصل.

ولعل من هذه الجوانب دراساته فى الأدب العربى الحديث، وله فى هذا المجال أكثر من كتاب، من أهمها خمسة كتب هى:

١ - دراسات فى الشعر العربى المعاصر.

٢ – الأدب العربى المعاصر فى مصر.
٣ – فصول فى الشعر ونقده.
٤ – البارودى رائد الشعر الحديث.
٥ – شوقى شاعر العصر الحديث.

وهناك جانب آخر هو دراسة بعض فنون الأدب العربى دراسة ميسورة ومبسطة، وقد درس من هذه الفنون:

١ – الرثاء.
٢ – المقامة.
٣ – النقد.
٤ – الترجمة الشخصية.
٥ – الرحلات.

وهناك أيضًا جانب ثالث من جوانب إبداع الدكتور شوقى ضيف العلمى، هو جانب التأصيل النظرى.

ومن أهم كتبه فى هذا الجانب:

١ – النقد الأدبى.
٢ – البلاغة تطور وتاريخ.
٣ – البحث الأدبى: طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره.

وهذه الجوانب الثلاثة تحتاج إلى دراسات مفصلة

مستوعبة حتى تكتمل الصورة لإنجاز صديقنا وأستاذنا الدكتور شوقى ضيف.

وأعتقد أننى أديت واجبى نحو هذا الرائد العظيم، ولهذا ألتمس لنفسى العذر إذا ما اكتفيت بهذا القدر من البحث والتنقيب فى عالم الدكتور ضيف، يبقى أن أتوقف قليلاً عند كتاب من هذه الكتب، أعتبره أهم كتب الدكتور شوقى النظرية، وهو كتاب «البحث الأدبى: طبيعته. مناهجه. أصوله. مصادره» وقد صدر هذا الكتاب فى فبراير ١٩٧٢.

وقد ظلمه الدكتور ضيف فى مقدمته عندما قرر أنه شعر منذ زمن بعيد «بأن طلبة الدراسات العليا فى أقسام اللغة العربية بجامعاتنا المختلفة، فى حاجة ملحة إلى كتاب يبين لهم كيف يوضع البحث الأدبى، وكيف يختار، وكيف يُصاغ منهجيًّا، وكيف تحقق أصوله وتوثق، وكيف تستخدم مصادره وينتفع بها على خير وجه». فظنه بعض الذين يكتفون من قراءة الكتب بمقدماتها كتابًا مدرسيًّا لطلاب الدراسات العليا، يرشدهم فى كتابة بحوثهم.

ومع أن هذا الكتاب يؤدى هذه المهمة خير أداء، فإنه أهم بحث نظرى قرأته فى علم المناهج، قديمها وحديثها.

وهو يمتاز عن كل الكتب الهامة التى تناولت هذا الموضوع، بما فيه من دقة البحث، وسهولة العرض، وجاذبية التناول، وخصوبة الإشارات التطبيقية، وروعة المزج بين القديم والحديث.

ثم هو بعد ذلك لا يكتفى بعرض المناهج، ولكنه يقدم من خلال هذا العرض منهجًا جديدًا متكاملاً، ولعل ذلك يعود إلى أن الدكتور ضيف قد كتب هذا الكتاب بعد ممارسة طويلة للتأليف والدرس الأدبى واللغوى والإسلامى، تكونت له خلالها - حصيلة ثقافية كبيرة، وخبرة علمية عميقة. ومعارف متنوعة تحولت إلى عصارات ثقافية ترسبت فى عقله ووجدانه، ولذلك جاء هذا الكتاب لونًا جديدًا من ألوان السيرة الذاتية، يتحدث عن العملية الثقافية من خلال تطبيقات الدكتور ضيف، ولكن دون أن يشير إلى ذلك.

والكتاب يتناول أربعة عناصر هامة:

العنصر الأول: طبيعة البحث الأدبى: وقد ركز فى هذا العنصر على مادة البحث الأدبى - اختيار البحث الأدبى - تنسيق مواد البحث الأدبى - الاستقراء والاستنباط - دقة التفسير - التذوق والتحليل - العرض والأداء.

والعنصر الثانى: عن «المناهج».

وقد تناول القديم والحديث، وتأثير العلوم الطبيعية على مناهج البحث الأدبى وتناول الدراسات الاجتماعية والبحوث النفسية. والفلسفة الجمالية. والدراسات الذاتية والموضوعية.

ودعا فى النهاية إلى المنهج التكاملى. . .

والعنصر الثالث: عن «الأصول».

وهذا العنصر من أهم عناصر الكتب، ففيه تتجلى خبرة المؤلف الثقافية والعلمية، وجمعه بين الثقافتين: القديمة والحديثة، ويكاد يكون منهجًا علميًا دقيقًا نعرف من خلاله طريقة التحقيق العلمى، ونتدرب على هذا الفن الذى يكاد ينقرض رواده، وقد تحدث الدكتور ضيف فى هذا العنصر عن التوثيق والتحقيق، وتوثيق رواية الحديث وأصوله، وتوثيق رواية الشعر ودواوينه، وتوثيق المصنفات اللغوية والأدبية. ونسخ الأصول وتحقيقها، كما تحدث عن الصعوبات التى تصادف المحقق عندما يمحى جزء من عنوان المخطوطة أو من اسم المؤلف، أو يسقط منها أوراق، وغير ذلك من الصعوبات. وشرح طريقة التغلب على هذه

الصعوبات، وقدم خبراته فى التحقيق.

وفى العنصر الرابع: تحدث عن «المصادر».

وهذا بحث يحتاج إليه كل مؤلف، ولهذا قدم الدكتور ضيف كل ما يحتاج إليه الباحثون من:

١ - تنوع المصادر.
٢ - استخدام القدماء للمصادر.
٣ - نقد القدماء للمصادر.
٤ - استخدام المحدثين للمصادر.
٥ - نقد المحدثين للمصادر.
٦ - الملحوظات والاقتباسات.
٧ - الهوامش والحواشى.

وبعد فهذا الكتاب معلم ومدرب لطريقة البحث العلمى والكتابة الأدبية، يشحذ العقل، ويلهم القلب، وينير البصيرة ويُعَوِّد الباحث على الصبر والدأب وطريقة الاستفادة من المراجع، كما يوقظ فى الإنسان الشوق إلى التزود بالجديد من المعارف ويعلمه فى النهاية كيف يحقق نصًّا قديمًا.



لست أدرى كيف أختم بحثى عن الدكتور شوقى ضيف؟

فلا أظن أننى فى حاجة إلى خاتمة تقليدية، ويكفى أن يعود الباحثون إلى مؤلفات الدكتور ضيف ليقفوا مبهورين أمام هذا الهرم الأكبر فى البحث الأدبى والإبداع الثقافى، على أننى فى النهاية أنصح الإخوة من الأدباء والباحثين الذين لم تمكنهم ظروف الحياة من التخرج فى الجامعات، أن يقتنوا كتب الدكتور ضيف كلها، ويبدءوا بهذا الكتاب الذى تحدثت عنه، ثم يعكفوا على قراءة هذه الكتب، وعندما ينتهون منها سيكونون قد تخرجوا فى جامعة الدكتور ضيف.

ولاشك أن هذه الكتب بطبعاتها المتعددة أدت وتؤدى وستظل تؤدى هذا الدور العلمى الرائد الجليل..

فهــرس

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور

شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض

رقم الإيداع	١٩٨٨ / ٧٦٨١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٥٧٢-X

١ / ٨٨ / ٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)